امرأة في
مهبّ الأرق

© جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو، سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم بالتسجيل، أم خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف، ومقدّمًا.

الطبعة الأولى

2023

ISBN 978-614-503-065-2

دار البيـان العربـي
للدراســات والنشــر

Tel.: 00961 3 305 257 - E-mail: dar-albayan2021@hotmail.com

تمارا شلهوب جاد

امرأة في مهبّ الأزرق

رواية

2023

إهداء

إلى رجُلي الأوّل والأخير...

إلى بطَلِ حياتي...

إلى زوجي...

تمارا

خالص الشّكر إلى كلّ من ساهم
في أن يبصر هذا العمل «النّور»
وأخصّ بالذّكر:

الأستاذ يوليوس هاشم
الدّكتور دلال عبّاس
الدّكتور عبد المجيد زراقط
الدّكتور مهى جرجور
الدّكتور أحمد نزّال

توطئة

ما يهُبُّ في حياة تلك المرأة، لا بُدَّ أنَّهُ قد هزَّ حياةَ كلِّ فردٍ منّا، أو يهزُّها، أوْ سوفَ يفعلْ!

«امرأةٌ في مَهَبِّ الأزرق» هوَ لسانُ حالِ كلّ إنسانٍ في العصر الحديث، كلّ إنسانٍ يملكُ أيَّ نوعٍ من أنواع الأجهزة الموصولة عبر الإنترنت. يكفي أن تكونَ قد تواصلْتَ يوماً، عبرَ أحدِ وسائلِ التّواصلِ الاجتماعيِّ، مع أيّ شخصٍ غريبٍ لمْ تلتقِ به وجهاً لوجه، كي تجدَ نفسَك واحداً من الشّخصيّاتِ الثّلاث الأساسيّة في هذه الرّواية.

هذه المرأة، كما كلّ النّاس في عصر الإنترنت، تعيشُ وحيدةً لا أحدَ معها سوى كلِّ العالم!

هذه المرأة، كما كلّ النّاس، تتقرّبُ عبرَ وسائل التّواصل الاجتماعيّ منَ البَعيدين والغُرباء، وتبتعدُ عنِ القريبينَ والأصدقاء؛ تدخلُ في تفاصيل ويوميّات الآخرين، وتخرجُ من عالمِها، وتصبحُ غريبةً عن نفسِها...

إنّها القصّة الأزليّة الأبديّة للإنسانيّة بل للبشريّة: نتوقُ إلى ما لا نملكُه، فننسى قيمةَ ما نتنعّمُ به، ثمّ نخسره. بدأ ذلك منذ أيّام آدم وحوّاء، وبسبب ثمرةٍ خسرا الجنّة، وكرّت السّبحة عبر الأزمان والعصور، إلى أن وصل دور "ثمر"، التي ضاقت بها جنّتها، وبدل التّفاحة قطفت كلاماً ناعماً تذوّقته وانسحرت.

هذه الرّواية ليست قصّة شخصيّات متخيَّلة، بل هي قصّة كلّ شخص منّا، سواء عرَفنا ذلكَ أمْ لَمْ نعرِفه، سواء اعترَفنْا به أمْ لمْ نعترف.

يوليوس هاشم

عسى أن يُغرقك أزرق الشّغف

في تيه بياضه أثيرًا من نور

مع خالص مودّتي

(١)

هناك، على الضّفّة الأخرى من الحروف، في العالم الأزرق، من غور حرمانه العاطفيّ والجنسيّ، من مسيرة كبت أليمة، طويلة، أضاءت شاشة الماسنجر عندها منه عبارة:

- طاب يومك ثمر، كيف حالك اليوم؟
- جيّدة يا نور، وأنت؟
- الحمد لله. ها، لا قصص جديدة؟
- بلى، ولكن ما الفائدة ما دمتُ أعرف رأيك فيها مسبقًا، ولن أحيد عن أسلوبي الذي يشبهني، يعبّر عنّي وأحبّه.

كانا قد تناقشا مرارًا في طريقة كتابة القصص القصيرة القائمة على السّرعة والصّدمة والتّكثيف، والابتعاد عن الإغراق في التّصوير والتّفصيل إلّا في ما يخدم الحدث. لكنّها امرأة التّفاصيل، أنثى الصّور، ما كان سهلًا عليها أن تتعرّى منها وتختال أمام شراهة عيون الدّنيا بشفّاف الاختصار السّريع.

- إذا أردتِ أن تتقدّمي، فعليكِ أن تتقبّلي النّصح وأن تأخذي بالملاحظات.

- أعلم، ولكنّي لست مقتنعة بهذا النّوع من الكتابة، لا أنتمي إليه، لا أحبّه.
- إن شئتِ، أرسل إليك بعض مجموعات القصص القصيرة، لتطّلعي عليها، وتتشبّعي منها، فتمتلكي أسلوبها ويجري في دمك، ويأتي بعدها منكِ عفو الخاطر، من دون جهد أو تكلّف.
- طيّب، لا بأس.
- هلّا زوّدتِني برقم هاتفك لأرسلها عبر الواتساب؟
- طبعًا طبعًا.

من الماسنجر إلى الواتس! بعد شهر من الدّردشات الأدبيّة الموغلة في الرّسميّة والاحتراف، خطوة صغيرة على أرض عالم الاتصال، وثبة كبرى في فضاء حياتهما. لم يعد اسمًا فحسب، صار رقمًا ضمن قائمة أرقام هاتفها "الخاص". لم يعد مجرّد حامل رسائل غريب: "ماسنجر" messenger، صار مُتّصِلاً قريبًا : " كولِر" caller.

أرسل إليها مجموعته القصصيّة الخاصّة، وأولى رواياته، وبعض المجموعات القصصيّة الأخرى، علّها تنتقل بها إلى عالم تقنيّات القصّة القصيرة بالمحاكاة لا بالدّراسة.

- أفيدي منها يا ثمر، اقرئي اقرئي اقرئي، بالقراءة وحدها تتطبّعين، وتتشرّبين، وتتكوّنين، وأنا جنبك في أيّ استشارة.
- شكرًا جزيلاً يا نور. أقرأها ونتواصل لنتناقش.
- نتواصل يا سيّدة الشّموس. أتعرفين يا ثمر؟ كنت تُشعّين بين الكواكب المنطفئة في صُوَرِكِ الأخيرة على الفايس.

ما كانت تعرف أنّه أمضى ساعات "يُفَلّي" صفحتها. صعقته صورُها: نضارة عشرينية منسكبة في وجه بيضاويّ ممتاز الملامح، ممتاز التّقاسيم، ممتاز التّفاصيل: من أعلى جبينها الإلهيّ الفضّي العريض، مرورًا بسحر حور عينيها اللّوزيّتين البنّيّتين المسحوبتين على نظرة جريئة، شقيّة، لعوب، أخذتْ بِلُبِّه وعقله، وصولًا إلى شفتين مكتنزتين مخطوطتين بإبداعٍ لامتناه. أمّا أنفها الإغريقيّ المستوي الطّويل، على ارتفاع الأرنبة، قليلًا، ناحية اليسار، فقد كان ضربة قاضية لرزانة نظرته، ورصانة فكره. ذاب فيها... في انسراح شعرها بقصّته القصيرة العصريّة. كلّ ما فيها كان ملائكيًّا يداعب شاعريّته، مستفزًّا يصفع رجولته الخمسينيّة -كان يكره رقم سنّه الذي لا يوحي بمكنون شخصيّته- بصعقات عالية الفولتاج، أسهدته لِليالٍ متأمّلًا في صورها: بفساتين السّهرة، بالأزياء اليوميّة البسيطة، بشعرها الطّويل المنسدل حينًا، المعقوص حينًا آخر، بجسمها

الممتلئ في الأماكن الصّحيحة تمامًا على هوى لهفته، وخياله، وفانتازياه، ونشوته.

كيف يتجرّأ على أن يغازلها بهذه الصّراحة؟ ولمَ يراقب تحرّكاتها ويتأمّل صورها؟ ألم يكونا منذ أقلّ من شهر غريبين يدردشان باحترافية عالية، ونبرة رسميّة جادّة إذ أرسلت إليه رسالتها البكر:

"مساء الخير أستاذ نور، أنا ثمر الحاج سعادة، إحدى متابعات صفحتكَ ومناقشاتكَ النّقديّة في النّادي الثّقافي، وأطمعُ في رأيكَ بكتاباتي".

كيف يشنّ غارات غزله على عالمها وهي عزلاء؟ ربّما يكون متحرِّشًا أو نصّابًا! ولكنّ سيرته على مواقع التّواصل الاجتماعي تؤكّد على أنّه أديب محترم، ومدقّق لغوي، ومعلّم! طردت الأفكار السيّئة عنه من رأسها، وتركت لنفسها العنان، لتستمتع بِغَزل شاعريّ راق، لطالما حلمت بمثله، وقرأت عنه في القصص والرّوايات والقصائد، ففي النّهاية، ماذا لديها لتخسره؟ كلّه كلام بكلام. اكتفت بإرسال وجه خجول، ففاجأها بصورة لها بثوب سهرة من السّاتان الأسود المكشوف جدًّا عن صدرها الممتلئ، المرتفع، الثّائر، تحت خصلات شعرها المتعرّجة، بماكياج عربيّ، صارخ، يبرز اكتحال عينيها، واكتناز شفتيها، في

نظرة ملؤها الأنوثة والإثارة.

- أنت امرأة رائعة، فاتنة، لا حلّ لها!

- وأنت مشاغب جدًّا! منذ متى وأنت تحتفظ بهذه الصّورة؟

هو مشاغب بالفعل، تخطّى الخطوط الحمراء كلّها، واقتحمها اقتحامًا غزليًّا كلامًا وصورة؛ غزل صريح، مباشر، صعق خيالها البريء السّاكت عن تساؤلات صامتة عَمَدَ أن يسكبها في كأس خاطرها إلى أن فاض بها اعترافه:

- نعم أنا معجب بك يا ثمر. ولكن هذا سيبقى سرّنا الكبير.

- سرّ؟ أيّ سرّ؟ أنا لا أخفي الأسرار عن زوجي. أنا أحبّ زوجي، أعشقه، هو حبيبي، وكلّ حياتي. مستحيل أن أخفي عنه أمرًا كهذا.

الزّوج، زوجها، الجانب المقيت في صورها، يظهر في تسعين بالمئة منها، يضع يده خلف ظهرها، أو يشدّها ناحيته، أو يقبّلها على خدّها ويتضاحكان. خمسينيّ، وسيم، رياضيّ، أنيق، يليق بها، ولكن، أَيُصَدِّق كلّ ما يراه على الفايس؟ ألا يمكن أن تكون تلك لحظات كاميرا مقتَنَصَة لا أكثر؟ ليس شرطًا أن يكونا حقًّا عاشقين، قد يدّعيان التوافق والاتّفاق أمام الكاميرا، أمام الأولاد، أمام الأهل، أمام الجيران، أمام الدّنيا بأسرها،

ويختلفان في ما بينهما. من يدري ماذا يخبّئ هذا البيت خلف جدرانه البيضاء؟ أفكار وأفكار تدور في رأسه، وأمنيات كثيرة خفيّة تعتمل في قلبه، جلّ ما يرجوه أن تبقى معه، مهما كان الثّمن، كيفما كانت الطّريقة، مطلق ما كان شكل العلاقة التي قد تجمع بينهما، المهمّ أن تبقى معه.

- أنت تحبّينه؟ ربّما نعم، ولكن حبّ عِشْرة، تَعَوُّد، احترام سنواتِ حياةٍ لكما معًا. حبّ ميّت، حبّ بليد، حبّ بارد. أمّا العشق، فلم تعرفيه، ولن تعرفيه معه. الحبّ راحة، والعشق مرض، الحبّ جمود، والعشق انطلاق، الحبّ جنوح، والعشق جموح. لا يا ثمر أنت لا تعشقينه، أنت تحبّينه فحسب.

- وما أدراك أنت بمشاعري؟ ما أدراك بخصوصيّات حياتي؟ سأخبره يا نور، سأخبره لأريح ضميري، ولن تتمادى في غزلك بعد الآن.

- أخبريه، لا يهمّ، أنا أيضًا سأخرج إلى النّادي الأدبيّ، وأنشر عليه أنّني معجب بأنثى بطعم الياسمين!

جفل قلبها للمرّة الأولى منذ عقود خلت. هي لا تتذكّر أنّها أحسّت مرّة بشحنة كهرباء صاعقة كالّتي مسّتها إذ وقع نظرها

على عبارة: "أنثى بطعم الياسمين". اضطربت، خافت، ارتعدت صحوة ضميرها عن غفوته. كيف ذلك؟ كيف؟ كيف لكلمات مكتوبة أن تفعل فيها ما فعلته؟ أن تأتي بالغيوم تحت قدميها لتطفو بها فوق السّماوات؟ أن ترى لون الزّهر أجمل، وصوت العصفور أرقّ، وصفاء السّماء أبهى، وطعم الدّنيا والأشياء أحلى؟

- كيف؟!

- هكذا! أخبريه يا ثمر، أخبريه. اقرئي المجموعات، وكوني بخير. نتواصل.

كانت تعشق الفصحى التي يتحادثان بها، محادثات راقية في الأدب والدّين والسّياسة والعلم، تحفًا إنسانيّة فنيّة، بصيغ أدبيّة أنيقة، خصوصًا بعض العبارات بصيغة الأمر كـ "كوني بخير"، التي لا تعرف لماذا تقرأها " كوني لي"، رغم انعدام الأخطاء الإملائيّة، أم تُراه قاموسها الخاصّ يقوم بالتّصحيح الآليّ على هوى قلبها؟

تجاذبتْها رياح الضّمير أيّامًا، تهبّ من شرق الوفاء تارة، فتنشر إحساسها بحاجة ملحّة، وقوّة كبرى لتخبر زوجها عن هذا الصّديق الأدبيّ الغريب الذي دخل حياتها ناصحًا، داعمًا

في الأدب، ولكنّه يجنح نحوها إعجابًا لا تعرف بِماذا تقابله، وكيف تستقبله؛ وتطويها صَبا غرب الخيانة أطوارًا، لتُشاركه الرّحلة الزّرقاء. وما الضّير إذا بقي سرّها الأكبر؟ سرّها الأجمل؟ سرّها الأوحد؟ ما الضّير في قليل من شغف الغزل الإلكتروني؟ ستأخذ كامل حذرها، لن تتمادى في الكلام من ناحيتها حتّى لا تُستغلّ كلماتها ضدّها في حال صُوّرت محادثاتهما، أو عرف بشيء منها زوجها. ستُبقي باب ريح المتعة مواربًا، تفتحه حينًا لتستمتع بطعم حروفه، لتتذوّق شهد الشِّعر مِن مفتون فيها، لتحيا تفاصيل أحد أحلام مراهقتها المبكرة منها والمتأخّرة: أن يعشقها شاعر، ويقول فيها أجمل الشّعر؛ وستغلقه حينًا آخر إذا ما هدّدتها شدّة عصف الرّيح بزلزلة ثوابت حياتها فتنكمش بسرعة، وتقطع علاقتها به، وكأنّ شاعرًا لم يكن، وكأنّ غزلاً لم يُقل، وكأنّ حُلمًا لم يُعش. كانت البداية قرارًا، وهكذا ظنّت النهاية.

(٢)

أمضت ساعات تقرأ، وتضع الملاحظات، وتصوّب الأخطاء الإملائيّة والنّحويّة في مجموعته الخاصّة التي بدأت، بطبيعة الحال، بقراءتها قبل غيرها. أرادت أن تعرفه، أن تفقهه، أن تفهم من هو هذا الأديب الغريب الذي غزاها غزوًا لا يُصدّ ولا يُردّ؟ فإذا بها تقع على "خطايا" لغويّة تشتّت انتباهها وتخرجها عن هدوئها.

- نور، أهذه هي النّسخة الأخيرة للمجموعة؟ أعني أستخضع لمزيد من التّنقيح، أم أنّها ستُطبع وتُنشر فورًا؟
- نعم، هذه هي النّسخة الأخيرة، وقد طُبعت بالفعل!
- كيف ذلك وفيها أخطاء لغويّة لا تُغتفر؟؟!!
- كيف؟ أين ذلك؟ لقد دقّقتُها بنفسي.
- هنا، وهنا، وهنا...

أرسلت إليه صورًا للفِقَر مع دوائر حول الأخطاء، وناقشته في تصحيحها.

- معك حقّ، ولكن هذه الأمور تحدث، هفوات كتابيّة، أخطاء طباعيّة تمرّ بشكل عاديّ، المهمّ ما رأيك في القصص؟

هفوات؟!! هفوات؟!! كيف ذلك؟ كيف يرضى مطلق كاتب أو أديب أن تصدر عنه كلمة واحدة مشوبة بملامح تأويل أو حيرة؟ لطالما كانت الكتب المنشورة مراجع لغويّة، إذ إنّ ما يُنشر يخضع لعمليّات مسح دقيق من قِبَلِ فريق لغويّ متخصّص في التّدقيق والتّصحيح، وما كانت دور النّشر تقبل بأن يصدر عنها خطأ طباعيّ واحد غير مقصود أبدًا، فكيف إذا كان الخطأ لغويًّا فادحًا ولا يحتمل التّأويل؟ صعقها واقع عالم النّشر والطّبع وحتّى الكتابة.

- رأيي؟! اعذرني يا نور، فأنا لم أتخطَّ بعد صدمتي في واقع الأدب الحالي، حتّى "أفصل" وأُبدي رأيي في مضمون القصص أو في أسلوبها. ولكن، واضح جدًّا ممّا قرأت، أنّك رجل رومانسيّ جدًّا، تتقمّص المرأة حتّى العظم: ففي قصّة "أنغام حائرة"، نجحتَ في ارتداء أنوثة البطلة، وأفكارها الخاصّة، وحاجاتها الحيويّة، وطموحها الزّوجيّ، ونقصها الإنسانيّ والأنثوي، وغيرها الكثير من الجماليّات الأدبيّة التي كانت لتكتمل لولا " تخبيصك" اللّغويّ.

- ألن ننتهي من قصّة الأخطاء اللّغويّة؟ " خلص"، حقّك عليّ، سأكون أكثر حذرًا في المرّة المقبلة.

- أرجو ذلك وإلّا كان عقابك وخيمًا.

- وكيف ستعاقبينني يا أنثى بطعم الياسمين، وعطر الياسمين، وجمال الياسمين؟ أنا جاهز لأيّ عقاب يصدر منك، ما دام له أثر الياسمين.
- أذقْتَ يومًا طعم الياسمين؟
- لا لم أذقْهُ، ليس بعد، ولكنّني أحلم بأن أذوقه عمّا قريب.
- لا، عنجدّ، ألم تذُقِ الياسمين من قبل؟ كيف تتغنّى بشيء لا تعرفه؟
- "عنجدّ"، "عنجدّ"، لم أذقه قطّ.
- حسنًا، أتوجد ياسمينة جنب بيتك؟
- نعم.
- إذًا، عند انبلاج الفجر غدًا، اخرج إلى الياسمينة؛ مهمّ جدًّا أن تشترك حواسّك كلّها في عمليّة التّذوّق هذه: أن تتنشّق عطر الياسمين المنساب إلى كيانك، أن تنصت إلى همس النّسائم الصّباحيّة الأولى تملؤك بقشعريرة من نور، أن تلمس مخمل الزّهرة وتتحسّس انحناءاتها، أن تتأمّل اصفرار شمسها على بياض ثلجها. أن تتلقّفها أخيرًا، بين إبهامك والسّبابة، تسحبها من عنقها، إلى فمك تقرّبها، تطبق شفتيك على انتعاش برودتها، تغمض عينيك، تمتصّ سكّر رحيقها، أكثر،

أكثر، حتّى تفقد كلّ طعم، كلّ لذّة... بعدها تعال وأخبرني كيف وجدت تجربتك الجديدة. إلى الغد.

- إلى الغد يا أنثى الياسمين.

أوووووف! إنّها لحلم حقًّا! صار أكبر أحلامه أن يلمسها، أن يتحسّس ندى جلدها، يُخيّل إليه أنّه سيغمى عليه أوّل ما تتملّكه إثارة عطرها! لا! لا رجل، مهما بلغت قوّة سيطرته على ردّات فعله، قادر أن يقاوم عطرها! لا ابن امرأة، مهما بلغت حدّة رجولته، قادر أن يصمد أمام سحر نظرتها! تخيّلَ رحيقها! عسلها! تُرى، ما طعم رحيق الجنّة؟ وكيف يكون عسل الجنّة؟ ما أصعب الحرمان القهّار، وما أقسى الحلم المبتور!

هو سيّد الأحلام، سيّد الخيال، فلطالما هرب إليه من شبح الفقر المدقع الملازم له منذ ولادته؛ ولكن أين المفرّ؟ كلّما فُتحت في حلكة دنياه طاقة فرج، شُرِّعت في وجهها أبواب ضيق، تَسُدّ ريح الطّموح، وتحجب شمس الأمل. كانت أمّه حلمه المبتور الأوّل: حلم بالغوص على نيل حنانها في جفاف قسوة الحياة، بالتّشبّع من حليب يديها في جوعه الأزليّ إلى الحبّ، باللّجوء إلى دفء حضنها فرارًا من جليد الخوف وصقيع الوحدة، ولكنّها رحلت... إلى أين ترحل الأمّهات بعد الموت؟ إذا كانت الجنّة تحت أقدامهنّ، فإلى أين يرحلن عندما

تُقتلع أقدامهنّ من تراب هذه الأرض؟ رحلت. تركته لطهر سنيّه العشر، ورحلت. خلّفته وحيدًا في اكتظاظ هذا العالم، ورحلت. خبّأت حنان الدّنيا في حرارة عبّها، ورحلت. رحلت وتركته نهش صقيع القسوة، وشرّ الظّلم، وأنين الوحدة. وتوالت بعدها صفعات القدر، صفعة بعد الأخرى، كانت خسارته فرصة عمره كلاعب ناشئ في نادي الأهلي لكرة اليد بسبب مرض أبيه وإشرافه على الموت، وحتميّة تسلّمه مسؤوليّة تربية إخوته في ريف المنصورة، ثاني أحلامه المبتورة، وليس آخرها.

(٣)

- صباح الياسمين.
- أهلا نور، كيف الحال؟
- الآن أنا صرت بأفضل حال. ها؟ هل أخبرته؟
- أخبرت من؟ بماذا؟
- مممممم. زوجك، بسرّنا.
- على فكرة، اتّصلوا بي اليوم من المدرسة يشكون مصيبة ندرة المعلّمين الأكفّاء، ويطالبونني بالعودة إليهم " حيّة أو ميتة"! طبعًا، طالبتهم بأجر خياليّ درءًا لإلحاحهم، فتراجعوا عن طلبهم خائبين. أتعلم يا نور، نظام التّعليم أرهقني، نظام قاس، مجحف، لاإنسانيّ، بشع. مهلًا مهلًا انتظر، سأرسل إليك خاطرة كتبتها لدى استقالتي من المعترك كلّه.
- فاتنة وذكيّة، أنت لا تُقاوَمين يا امرأة. تُجيدين التّملّص من المواقف والأحاديث والأسئلة بحسن تدبير رهيب! فظيعة!
- أتريد قراءة الخاطرة أم لا؟
- أرسليها، أتوق إلى كلّ شيء منك.

- نور، " اقعد عاقل"!
- عاقل أنا، عاقل جدًّا إلى الآن، لم تري شيئًا من جنوني بعد.
- طيّب أيّها العاقل، اقرأ وأبدِ رأيك.

"إن لم تكن فيكم الحريّة، فكيف تعطونها؟؟؟" (كورنثوس الأولى ١١)

فعلتُها!

فعلتُها! رفعتُ خلفي أسوارَ الذّلِّ، وشرّعتُ أمامي أبوابَ الكرامة.

فعلتُها! فجّرتُ قنبلةَ الصّمتِ، وأخرستُ ضوضاءَ الخوف.

فعلتُها! أسقطتُ أقنعةَ الثّباتِ، والرّصانةِ، والرّزانة.

فعلتُها! تركتُ أكثرَ المهنِ نكرانًا للجَميل.

بعدَ عشرين عامًا، فعلتُها! استقلتُ من ضغوطِ نجاحِ الآخرينَ على حسابِ فشَلي النفسي، ومن فشلِ الآخرينَ الملقى أبدًا على كاهلي الحزين.

بعد عشرين عامًا، فعلتُها! أنهيتُ سباقي مع الوقتِ، والمرضِ، والتّعبِ، والألمِ، والعملِ، والشّرحِ، والتّحضيرِ، والتّصحيحِ، وكلِّ منظومةِ التّعليمِ العقيمة.

بعدَ عشرين عامًا، طلّقتُ ثلاثًا، خائنًا امتصَّ دمائي جَلْدًا، وجِلْدا.

بعدَ عشرين عامًا، رفعتُ هامتي، وقلبتُ الطّاولةَ على نظامِ الاستعبادِ الممنهجِ، المنظّمِ، المهذّبِ، الأنيق.

نعم!

عندما أطلقتُ جناحيَّ للرياحِ الأربعِ، منذُ عشرين عامًا خلَتْ، كنتُ طالبةَ علمٍ، وأدبٍ، وحبٍّ، وحياة. كانَتْ أحلامي قوسَ قزحٍ يتمرّى في بلّورِ روحي، نقيًّا، برّاقًا، وضّاءً. كنتُ ألتحفُ ملاءةَ المواهبِ في صقيعِ الخوفِ، وبردِ المجهول.

وشيئًا فشيئًا، وجدتُني أنساقُ انسياقًا أعمى في نظامٍ أبكم، وإذا بي أدخلُ مِشرحةَ الطّموحِ برجليَّ هاتين. وراحتِ الأيّامُ تُعرّيني، وتتناقلُ مبضعَ الكآبةِ، وتشرّحُني بلا رحمةٍ، عامًا بعدَ عامٍ، محنةً بعد أخرى. وصارَ المدى يضيقُ، وصارتِ الرّؤيا تنحسر، وصارَ الحلمُ يحتضر، وصارتِ المواهبُ تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ، قبلَ أن تُسْلِم الرّوح.

وفي الرّمقِ الأخيرِ، وأنا على صليبِ الانهيارِ الشّاملِ، فعلتُها! شلّعْتُ مساميرَ الرّضوخِ، ونزعْتُ أشواكَ التّنميط.

لا، لم أتماهَ قطُّ وشكلَ "المعلّمةِ" الصّارمِ الذي أسقطَتْهُ

عليَّ ذواتُ اللّباسِ الأسود. لقد حاولنَ تكميمَ نبرتي العالية، لقد حاولن ذبحَ شخصيّتي النّافرة، لقد حاولن طمسَ هُويّتي الصّارخة.

لكنّي اليومَ، فعلتُها! عدتُ حرّةً، طليقةً، لأكونَ "أنا" الحقيقيّة! لأثقبَ أنفي وحاجبي، وأرسمَ الوشومَ على جسمي، وأرتدي ما يصرخُ بي، ويصرّحُ عنّي.

فعلتُها! وسأجدُ لي مهنةً تشبهُني، بشخصيّتي الجريئةِ، بصوتي العالي، بنبضي المستفزّ، بكرامتي الصّارخة، بحرّيّتي اللّامحدودة، بكلِّ ما "كانَ" يميّزُني، وسرقتْهُ مني هذهِ المهنةُ "القاتلة".

أخيرًا! فعلتُها! تحرّرتُ! وقريبًا جدًّا سأقشرُ جلدي، وأنتفُ ريشي، وأكسرُ منقاري، وأحلّقُ عاليًا في سماءِ ما أحبّ. قريبًا، سأعودُ "أنا"!

– ها؟ ما رأيك؟

– خاطرة رائعة. أنت رائعة يا امرأة! قلبًا وقالبًا! لقد أجدت في نقل أحاسيسك الصّادقة، وانكسارك الكبير، وانتفاضتك القويّة. كلّ هذه الأحاسيس التي ساورتك، والشّجاعة الكبرى التي تتحلّين بها لتأخذي قراراً حاسمًا حازمًا كهذا،

دون أن تهتزّ لك خصلة شعر، كلّها ميزات أكتشفها فيك كلّ يوم. أنت مشروع أديبة عملاقة يا ثمر. ثابري وستصلين. ولكن...

- نعم، ركّز على الـ" ولكن"... كم أخشى الـ" ولكن" خاصّتك!
- تخشينها؟؟ أتخافين منيّ يا ثمر؟
- أخشى ملاحظاتك، مع أنّك دبلوماسيّ وأنيق وراق جدًّا في إعطائها، "أستاذ" بكلّ ما للكلمة من أبعاد، ولكنّي، بطبيعتي، لا أحبّ تلقّي الملاحظات، لطالما سعيت إلى الكمال والامتياز في كلّ شيء، وبالتّالي فالملاحظات دليل نقص معيّن يجب أن يُملأ، خطأ محدّد يجب أن يُصحّح، وأنا أكره النّقص والخطأ. أعلم أنّ هذا عيب فيّ، وعليّ أن أكون أكثر تقبّلاً للنّقد، البنّاء منه بشكل خاصّ، ولكنّ الأمور دائمًا ما تفلت من يديّ، ولساني، وملامحي، فترى الانكماش عليها، ويصيبني صمت التّوتّر، ويعتريني غضب الإحساس بالتّقصير، وتحدّي الكمال.
- أها، إذًا عليك أن تتدرّبي على تقبّل النّقد، وعلى مناقشة الرّأي الآخر بهدوء أكبر، وبانزعاج أقلّ. أَبْقي في ذهنك أنّكِ ممتازة كما أنتِ، ولكن مهما بلغت درجة تميّزك، فلن

تُرضي الجميع لأنّ كلّ شيء نسبيّ، الجمال، والشِّعر، حتّى الكمال نسبيّ.

- ولكن... أنتظر ما هو بعد الـ "ولكن".

- عملك يقوم على التّكرار، وهي نقطة مميّزة إيقاعيًّا، تصبغ الخاطرة أو النّص الإبداعيّ بصبغة موسيقيّة عالية الوتيرة، كما يفيد الإيقاع في التّأكيد على الفكرة، والتّشديد على الموقف؛ ولكنّ، هذا التّكرار، برأيي أنا، ينجح في المجال الشّفهيّ، في الخطب، والكلمات الملقاة على المنابر، حيث يخلع القارئ أو الخطيب الكفوء على الكلام، من تمكّنه اللّغويّ، ونفَسه الأدبيّ، ونبرته الواثقة، وصوته الإذاعيّ، أو الجهوريّ، أو الشّاعريّ، إضافة إلى حسن الإقناع، وقوّة التّأثير، وغيرها من السّمات. أمّا في المجال الكتابيّ، برأيي، فالتّكرار يُضعف الكلام فيبدو مشوبًا بالوهن.

- هذا رأيك، يا نور، وأحترمه، ولكن، إن كان الأمر كذلك، فما قولك بكتابات الماغوط ومطر والسيّاب وبعض قصائد نزار وغيرهم، القائمة على التّكرار، والتّوازن والتّوازي؟

- ومن قال إنّي أحبّذ الشّعر الحديث؟ أنا أؤمن بالكلاسيكيّة. أرى أنّ التّفلّت من القيود تفلّت من الأصول، وكلّ تفلّت

من الأصول نكران للجذور، ونكران الجذور، خيانة للهويّة، وخائن الهويّة لا يستحقّها.

– أوف أوف أوف!!! مهلاً مهلاً! أنت من إيّاهم إذًا؟ من مناهضي التّقدّم والتّطوّر؟ خذلتني يا نور! خلتك أكثر انفتاحًا أدبيًّا، خلتنا نتشابه شعريًّا، خلتني سأَقرأك وتَقرأني شعرًا حديثًا يشبهنا.

– أنا أقرأ الشّعر الحديث فعلاً، وأكتبه أيضًا، فذلك من ضمن ما يحتّمه عليّ اللّحاق بالرّكب الأدبيّ، ولكنّ هواي كلاسيكيّ هذا كلّ شيء.

– لا، هذا ليس كلّ شيء، لم يدلّ كلامك فوق على "أنّ هذا كلّ شيء". لقد كان تصريحك صارمًا، حازمًا، فيه الكثير من التّعصّب، والإسقاط غير المبرّر، غير المقنع. أنا زعلت.

– لا لا إلّا زعلك! كيف أراضي سيّدة الشّموس؟

أطرقت لحظات، توقّفت يداها عن الكتابة، فكّرت، ماذا تطلب منه إرضاء لزعلها؟ من هو هذا الغريب الذي يعزّ عليه زعلها إلى هذا الحدّ؟ لمَ تشعر برغبة جامحة إلى الاستماع إلى غزله؟ لمَ ترغب في أن يكتبها؟ أن يرسمها لوحة من نور؟ أن يخطّها قصيدة من ورد؟ كتبت ليلتها على صفحتها، على أمل

أن يقرأها:

قصيدة

اكتبني

اكتبني أثيرًا لم يطأْهُ إلهْ

اكتبني وحيًا لم يَطَلْهُ خيالْ

اكتبني طلسمًا شيفرته يداكْ

اكتبني عمرًا لم يُعَشْ

اكتبني دمًا لم يُرَقْ

اكتبني

اكتبني بِكْرا

عرِّ الحروفَ

بعثرِ الجنونَ

شقَّ السطورَ

لا ترحمِ الكلامْ

اكتبني فينوسًا بطعمِ الياسمينْ

ذُرَّني عطرًا على القصيدة

اجعلني امرأة!

اكتبني...

- مممم. لا أدري، أنت أدرى بأسرار النّساء، وبدواخل النّساء، وبأفكار النّساء، لا أدري، فاجئني.

فعلاً، كان عند حسن حدسها. كتبها. كتبها للمرّة الأولى. انسابت بين حروفه، انسلّت على شغاف الإبداع قصيدة، لا ككلّ القصائد، قصيدة لها هي، فيها هي، هي وحدها.

كَألْف فِراشةٍ أنتِ

كَألْف فِراشةٍ طِرْتِ

إذا ما الضَّوْءُ يَنْسابُ

منَ الأحداقِ لوْ حُمْتِ

كَألْف فِراشةٍ تَسعى

تَغيبُ الشَّمْسُ لَوْ بِنْتِ

يَحُلُّ كسوفُها أبدًا

إذا ما كُنْتِ أوْ صِرْتِ

كَتَمْرِ النّخْلِ ألقاكِ

أذوقُ الضَّيّ لَوْ بِنْتِ
وشَمْسُ البَدرِ يا ثمرةْ
تُعانِقُ وَجْهَك أَنْتِ.

وقع المحظور، لامست قدمها مدّ المياه على شاطئه. دعاها إلى رحلة بحريّة طويلة، إلى غوص على مرجان العشق. تردّدت، خافت، أنّبها ضميرها الزّوجيّ كثيرًا. لكنّ شغف الحروف طيّر عقلها، هي امرأة من كلام، من شعر، من حلم، وهو شاعر، من خيال، من حروف، من وهم. الغريب أنّه لم يتملّكها الفضول يومًا، لترى ملامحه، لم ترسم له حتّى صورة في خيالها، ظلّ لفترة شهر أو أكثر طيفًا أبيض على الشّاشة الزّرقاء، فصفحاته كلّها موسومة بصور لأغلفة مؤلّفاته. لم يتملّكها الفضول يومًا لتدخل إلى صوره على الفايسبوك فتبحث فيها عن جسد أرضيّ للروح الأثيريّة التي سرقتها من واقعها وأسكنتها عرش فردوس الشّعر. ما هذا الانسحاب المتفلّت من كلّ حسّ؟ من كلّ مادّة؟ جنوح هيوليّ يطوف ويطوف بين الذّرات، لا يؤطّره زمكان، ولا تحدّه ظروف. طيران في المدى اللّامحدود، رقص على الأفق اللّامنظور، وفراشات فراشات! كيف للفراشة أن تقاوم سحر النّور؟ لم تكن تعلم قبله، أنّ الفراشة تعيش ليوم واحد، ظلّت تحوم وتحوم حتّى سقطت فيه. كمراهقة تتلمّس قرون

استشعار الحبّ عندها أولى ذبذبات الهوى، فقدت الشّهيّة على الطّعام مدّة ثلاثة أيّام متواصلة، أصابها أرق مدّة أسبوع كامل، لم تعرف خلاله هدأة النّوم: أعاصير تزوبع في رأسها، وطبول تقرع في صدرها، توجعها: شعرت بأكثر من نوبةِ تسارعٍ في دقّات القلب، كان هذا النّابض يسابق النّبض ويتفوّق عليه حتّى يشارف على اللّانبض. كانت تشعر بالجوع فعلًا، جوع رهيب إثر صيام عشرين ساعة أو أكثر، ولكنّها ما اشتهت الطّعام. ظلّت معدتها تلوك نفسها ساعات وأيّامًا، ولا تبعث هي لها من القوت سوى نقدة عصفور، حتّى شكت حالها لأمّها، فمازحَتْها: شو؟ هيأتك مغرومة يا ثمر. لم تعرف هي، ولا عرفت أمّها أنّ المزاح جدّ نصفه، وفي حالتها كان كلّه جِدًّا.

(٤)

كثوب على جسمها لاصقها ليل نهار. فقد كان يؤمن بأنّ من أراد أن يشغل امرأة به، عليه أن يتفرّغ لها، أن تكون في قمة هرم حياته، وأن يتداعى كلّ شيء آخر تحتها. أغرقها غزلاً صباحيًّا نديًّا مضمّخًا بعبق نسائم الفجر الأولى، أتخمها اهتمامًا عشقيًّا حرفيًّا على مدار الثّواني، سامرها حتّى شلل الأصابع كتابة، وانغلاق العينين تعبًا. سكنها واستكان بين أضلعها. انصهر في ذرّات الخلايا، بين ثنايا المسام. فرغ كوناهما إلّا منهما، فلا زوج ولا أولاد ولا عائلة، بل انصهار كامل لأحدهما في الآخر، في انغلاق كلا دنياهما عن الدّنى كلّها.

- صباح الياسمين يا ثمرتي.
- صباح الخير يا نور.
- كيف حال مليكتي اليوم؟
- لست بخير يا نور. أنا لا آكل، ولا أنام، وأُصاب بنوبات تسارع في نبضات القلب.
- لسّه يا ثمر، لسّه كتير. ما زلت على الشّاطئ، لم تركبي الزّورق بعد، لم تجابهي رياح البحر، لم تقفي وسط النّوّ،

لم تخضعي لإله العشق، لم تُسلّمي كلّ أسلحتك، لسّه، لسّه كتير يا ثمرتي. أتعرفين يا أجمل النّساء، يا كلّ النّساء؟

- ماذا يا نور؟

- تقولين إنّك تحبّينه، ذاك الذي يعيش معك، ولكنّه لا يعيش فيك، لم ينسلّ بين خلاياك. العشق والحبّ مختلفان جدًّا يا جميلتي. الحبّ فرح، والعشق عذاب، الحبّ اكتفاء، والعشق حرمان، الحبّ استقرار والعشق جنون، الحبّ أبديّ والعشق يتخطّى الأبديّة، الحبّ أوّل الطّريق، أدنى درجات الانجذاب، والعشق آخره، أسمى درجات الوصال. أتعرفين يا حلوتي؟ أنا أؤمن أنّ اللهّ خلق البشر أنصاف أرواح هائمة في هذا الكون الشّاسع، يفنون حياتهم في سعي دائم ليتّحدوا بنصفهم الآخر، لأنّ الأشياء من دونه مجرّد أنصاف: نصف سعادة، نصف حزن، نصف جوع، نصف شبع، نصف حياة، نصف، نصف، نصف... والإنسان بطبيعته طمّاع، ميّال إلى الإشباع، إلى الفيض، إلى الكثرة، لا يستوي وجوده من دون نصفه الآخر. ولكن المأساة التي لا يفقهها هذا التّائه المسكين، الهائم في البراح يبحث عن السّراب، أنّه إذا ما وجد نصفه الآخر، فلن يتّحد به. هكذا قُدّر له منذ الأزل، أن يبقى في حالة سعي، من بحث خلال الفقدان، إلى

حرمان بعد العثور، إلى عذاب بعد الفراق. العشق الحقيقيّ لا يأتي إلاّ في الوقت الخاطئ، للشّخص الخاطئ، في الظّرف الخاطئ، حتّى تبقى الرّوحان متواجهتين، كلّ منهما بمغناطيسها، والمغناطيس لا يجذب نظيره!

(٥)

- صباح الياسمين يا حلوتي.
- صباح الخير يا نور. ما كلّ هذا التّأخير أستاذ؟
- رغمًا عنّي، كانت العائلة جنبي، ولم أستطع أن أكلمك.
- على فَوْقا! لم تحدّثني يومًا عن وضعك الاجتماعي. هاتِ أخبرني.
- ما معنى "على فوقا"؟
- أقصد بالمناسبة، على فكرة.
- أها، مع أنّني على درجة عالية من إتقان اللّهجة اللّبنانيّة إلاّ أنّ بعض العبارات ما زالت تتفلّت منّي.
- بالمناسبة إنت عمرك ما كلّمتني عن عيلتك. ها. قولّي.
- الله المصرية في حروفك عسل، ولكن...
- آه، ولكن، دائمًا هناك ولكن... رجل الـ "ولكن" أنت!
- وأنت امرأة التّسرّع! تسابقين الزّمن والمواقف والكلام. أردت أن أقول، ولكنّي أعشق لهجتك، بموت في اللّبنانيّة بتاعتك! أنا شبعان لهجة مصريّة، وهموت عليك يا لبنانيّة إنت! آه لو كنت بين إيديّ كنت...

- نور.

- أعرف، سأكون عاقلاً.

- شاطر يا حلو.

- الله ! "شاطر" و"حلو" في جملة واحدة؟ ولي أنا؟؟ بركة دعائك يا أمّي!

- مهضوم.

- وأنت فاتنة الفاتنات!

- طيّب، أخبرني عن عائلتك.

- اسمعي يا ستّي، أنا متزوّج منذ أواخر عشرينيّاتي، وأنا الآن في بداية خمسينيّاتي، وعندي صبيّان وفتاة واحدة. الكبير أنهى تعليمه وسيتزوّج قريبًا، والفتاة تزوّجت ولها ولدان، والصّغير في الصّف السّابع.

- كنت صغيرًا جدًّا يا نور! وكيف هي علاقتك بأفراد عائلتك؟

- زوجتي وأنا غرباء منذ أكثر من عشرين عامًا. زواجنا كان تقليديًّا، ولكِ أن تقدّري معنى ذلك. التّوافق والاتّفاق بيننا معدومان تمامًا، وعلى كلّ الأصعدة، من الفكر إلى السّرير. لكلّ منّا اهتماماته التي يحيا عليها. لكلّ منّا غرفته التي يحيا

فيها. لكلّ منّا أهدافه التي يحيا من أجلها.

- بكُلّ نفَسِك الثّوريّ هذا، وانفتاحك، وتفكيرك العمليّ، وثقافتك، وقعت في فخّ الزّواج التّقليدي؟ أنا آسفة، ولكنّي أستغرب هذا التّناقض في شخصيّتك. لمَ لم تُغيّر مصيرك؟ لمَ لم تنتفض؟ أعرف أنّ الطّلاق في دينك سهل، على عكس الأمور عندنا. لا أدري، أنا لا أفهمك. أنت مخيّر يا نور، ولست مسيّرًا.

- لا أوافقك الرّأي. فمسألة "المخيّر" و"المسيّر" عندي مختلفة، ليست أبيض أو أسود. أعتقد أنّ الإنسان مخيّر ومسيّر في آن. مسيّر في ما يُختار له: جنسه، لونه، اسمه، شهرته، دينه، أهله، وطنه. أووف! لم يخطر في بالي يومًا أنّ بطاقة الهويّة، الملتصقة بكيان المرء، الحافظة وجوده، هي الدّليل الحاسم على اللّااختيار، وأنّه إذا فقدها، فقد ذاته، ألهذا سُميّت بالورقة الثّبوتيّة؟ ألأنّها الإثبات الوحيد، الأكيد على وجوده؟ أمّا ما يختاره الإنسان من اختصاص، وعمل، وحبيب، وشريك، وطعام، وشراب، وتصرّف، فمجرّد سلسلة من الكماليّات الوجوديّة التي لا يؤثّر فقدانها على وجوده في شيء.

- صراحة، أنا لم أشغل بالي يومًا بهذه التّساؤلات، الحياة

عندي أبسط من هذه النّظريّات الفلسفيّة، وأقلّ تعقيدًا بكثير. الحياة عندي إيمان بالله، وصلاة له، واتّكال على رحمته، وسعي إنسانيّ دائم نحو السعادة والحب في مسيرة حياتيّة شائكة، عسى أن يخرج المرء منها بأقلّ خطايا ممكنة، ليكون أهلاً ليقابل وجه العليّ.

- أمتديّنة أنت يا ثمر؟ أقصد أملتزمة أنت بطقوس دينك؟

- تريد أن تسأل إن كنت متعصّبة لديني، هذا ما تقصده بسؤالك. علاقتي بربّي مميّزة جدًّا على بساطتها، فأنا أحبّه جدًّا، وأعتمد عليه في كلّ شيء، وأؤمن بحسن تدبيره، وأستسلم لإرادته، وأحاول أن أُحسِن قراءة إشاراته. لقد علّمتني بعض التّجارب القاسية، عندما يشتدّ وزر المصيبة، وتختنق عقدتها، أنّ الإيمان به، والصلاة له، رغم الفقر، رغم الوحدة، رغم الظّلم، رغم الشرّ، قادران على صنع العجائب. نعم أنا مسيحيّة مؤمنة، ولكنّي لست متعصّبة لديني، أحترم خصوصيّة الدّين الآخر، وأراعي طقوسه، وأتجنّب الاستفزاز على أنواعه. هذا ما علّمتُه لتلامذتي خلال العمل على شرح محور "صدر الإسلام"، إذ كنّا نتطرّق، ولو بلمحة سريعة، إلى حياة النّبي محمّد (صلعم)، ونزول القرآن، وأنواع الآيات وبعض مضامينها، والطّقوس والعادات.

ولَكَمِ اصطدمتُ بأدمغة فتيّة قطنيّة ولكن متحجّرة متخلّفة، تخشى الاختلاف على أنواعه حتّى الكره، حتّى العمى. يقولون أيّ دين هو هذا الذي يتزوّج نبيّه عشرات المرّات؟ وآخرهنّ طفلة في التّاسعة؟ أيّ دين هو هذا الذي ينزل في الحلم على بشريّ عاديّ، فيحفظه ويحفّظه لأصحابه ويبشّر به ويصدّقه النّاس؟ ألا يشكّون في تأليفه أو تحريفه أو تأويله لكلام الله، هذا إذا سلّمنا جدلاً أنّه كلام الله لا كلام العبد لله؟ أيّ دين هو هذا الذي يسمح بتعدّد الزّوجات، ويكسر بخاطر المرأة ويسمح بأن تُضرب وتُهجر وتُطلّق بكلمة واحدة؟ أيّ؟ وأيّ؟ عشرات منها تنهال عليّ كلّ عام، وفي كلّ عام، وبلذّة مطلقة، أتهيّأ لمعركة تقبّل الآخر. أقول لهم، إن أنتم لم تقتنعوا بهذه الحقائق المُنزلة عند الآخر، فكيف تقنعونه بحمل امرأة من دون اتّصال جنسيّ برجل؟ كيف تقنعونه بطفل كباقي الأطفال يكبر ليصبح إلهاً؟ كيف تقنعونه بأنّ هذه المرأة التي حملت من الرّوح القدس، مكثت بتولاً قبل الميلاد وفيه وبعده؟ كيف تقنعونه بأنّ إلهكم مثلّث الأقانيم التي تتساوى في الجوهر وتتماهى في الطّبيعة وتُعبدُ كلّها؟ كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ وأظلّ انهمر عليهم بمئة "كيف" إلى أن يخلعوا عباءة التّبجّح والتّكبّر، ويبدؤوا بفهم ضرورة تقبّل الدين الآخر، واحترام اختلافاته، وخصوصيّته، إلى

أن نختم النّقاش بأنّه " كلّ على دينه، الله يعينه"، وأنّ الأصل في التّواصل، والتّعايش، والتّلاقي، والتّصرّف تجاه الآخر بحسب ما تمليه عليه إنسانيّته، لا بحسب ما يؤمن به. فلا خير في صديق يخونني ويبيعني، حتّى وإن كان من ديني، يكفيني صديقي المسلم الذي يصونني ويفي لي في حضوري وفي غيابي. الدّين معاملة، الدّين أسلوب حياة، وإن لم يكن الدّين حافظًا لكرامة الآخر، مُحسِنًا للفقير، مسامحًا للمخطئ، فعليه السّلام!

- جميلة أنت يا ثمر. علّميني دينك.

- سأعلّمك يا نور.

- أتعرفين؟ أنا لست ملتزمًا بديني، ولا متعصّبًا له. لا أصلّي إلا بعض أيّام الجمعة في المسجد المحاذي لبيتنا. أنا رجل علمانيّ بامتياز. أؤمن مثلك بالإنسانيّة في التّعامل مع الآخر. أقدّس الحريّة وأقدّر الاختلاف. أمقت التّعصّب، والتّفرّد بالرّأي، والأنانيّة. أنا إنسان عمليّ مؤسّساتيّ، أرى أنّ نجاح المؤسّسة أيًّا كان نوعها، يقوم على عمل مشترك من كلّ الموظّفين والمستثمرين. القيادة عندي مشاركة، مساندة، وهذا هو سرّ التّطوّر، وضمان الاستمراريّة.

- أنت فعلاً تملك حسًّا قياديًّا عاليًا، وقد أثبتّ صواب

نظريّتك هذه بطريقة إدارتك للنّادي الثّقافي. أنت تُشعر كلّ عضوٍ مُنْتَمٍ إلى النّادي أنّه مسؤول عنه، عن تطوّره، وأنّ كلّ فكرة أو اقتراح مهمّ جدًّا بالنّسبة إليك، وأنّهم جميعهم مديرون، وأصحاب دار وليسوا ضيوفًا في النّادي. يعجبني وعيك الاجتماعي هذا، أشعر أنني أخاطب أميركيًّا منفتحًا، عصريًّا، واعيًا خطورة التّفرّد، لا عربيًّا متعصّبًا، عنيدًا، يقدّس الفرديّة، ويفهم القيادة الجماعيّة الاستشاريّة، على أنّها رئاسة استئثاريّة دكتاتوريّة. أليس هذا شأن الرؤساء والقادة ورجال الدّين العرب جميعهم؟ ولكن "كما تكونوا يُولَّ عليكم".

- أتعرفين؟ بحثت في عيون كثيرة فلم أجد إلا عينيك شبيهًا لأشعاري!

كان سقوطها مدوّيًا، كمقصلة على حديدها، صارت تلهث خلف غزله، تتنفّس حروفه، تستنشق حديثه، عذبًا، رصينًا، رزينًا، على شقاوة بين الحين والآخر، خصوصًا كلّما مال صوب الإباحيّة، ولكنّها كانت دائمة الحرص على شدّ المرساة كلّما جنح بهما المركب:

- شهيّة أنت يا امرأة!

- نور، اقعد عاقل.

- ألم تفهمي بعد أنني عاشق يا ثمر؟ والعشق قلب كلّه.
- على فوقا، لم ننهِ بعد حديثنا عن زواجك. لمَ لم تتطلّقا ويعش كلّ منكما حياته؟
- بيئتنا محافظة جدًّا، والطّلاق فيها ظالم للمرأة، كما للرّجل؛ على كلّ حال، أنا شخص لا يحبّ المشاكل، هادئ بطبعي ومسالم، ولم أرد أن أكون سببًا في ضياع أولادي، وانهيار أسرتي. بقيت معها لأجلهم. عشت حياتي لأجلهم.
- وحياتك أنت؟ وشغفك؟ وشعرك؟ وأدبك؟ كيف تكتب بلا شغف؟ كيف تحيا بلا حبّ؟ طيّب لمَ لم تتزوّج من أخرى؟ تعدّد الزّوجات عندكم مسموح، وشرعيّ، وأعتقد أنّ الله شرّعه رأفة بالحالات المشابهة لحالتك. أنا لا أفهمك!
- حاولت، وفشل المشروع. عرفت زوجتي ورفضت.
- وهل يحقّ لها أن ترفض؟
- المسألة تتعلّق بنمط الحياة ككلّ. كانت ستنكّد عليّ حياتي. ما كنت لأتمتّع بيوم واحد مع زوجتي الأخرى.

لم تقنعها حججه إطلاقًا. حارت ودارت، ولم تصل إلّا إلى استنتاج واحد لم تشأ أن تجرحه به، فاحتفظت به لأملها الخائب في رجولته. "خسارة! جبان". عندها فقط تحمّست لتراه. كيف

هو شكل ذاك الذي أخافته زوجته؟ تخيّلته قصير القامة، هزيلاً، منحني الهامة، في عينيه نظرة حزن وانكسار. فعلاً، فتحت ملفّ صوره على صفحته، ولكنّها لم تُصِب من توقّعاتها سوى عينيه. عيناه الغائرتان من وهن، وهمّ، وحزن عتيق، وانكسار. فاجأها شكله جدًّا. تأمّلت الصّور طويلاً عاجزة عن ربط ما رأته بمن تكاتبت معه. فهو حتّى هذه الدّقائق ما زال طيف شاعر، الآن فقط صار إنسانًا، صار كيانًا، صار موجودًا؛ كان غبارًا أزرق، رذاذ شعر وعشق وحبّ، الآن فقط صار واقعًا له جسد: معتدل الطول، رياضيّ على امتلاء قليل في البطن، مفتول الذّراعين، يرتدي جينزًا كحليًّا، وبولو(polo) أزرق. قليل الشّعر، حليق الذّقن، لطيف الملامح، أسمر. لم يلفت أنوثتها منه شيء. ولكنّ عينيه الخائرتين التّعيستين، استفزّتا حسّ الأمومة عندها، أحسّت بمَعينه النّاضب حنانًا، النّابض طينًا. "يا لعظمة حرمانك يا نور!" للحظتها شعرت بحاجته إلى أمّ أكثر منه إلى عشيقة.

(٦)

- صباح الياسمين.
- صباح الخير يا نور.
- أشتاقك.
- أعرف.
- مغرورة.
- ألا يحقّ لي بذلك؟
- بلى، فأنت المليكة في بهائك، والمثال في جمالك، والشّمس في سطوعك. وأنا خادمك، ومتأمّلك، ومبهورك. لو تعلمين! آه لو تعلمين!

كان غرورها يستفزّ شاعريّته، كان عقلها يستفزّ عقلانيّته، كانت شقاوتها تستفزّ رجولته. شغلت كلّ وقته، وفكره. هو الأستاذ الوقور، والمربّي الجليل، الحريص، صاحب النّظريّات التّربويّة الرّصينة، الذي كانت تُضبط السّاعات وفقًا لوقت حضوره ورحيله، النّظاميّ السّائر على صراط القانون لا يتزحزح عن سكّينه. ما تهاون يومًا في خطإ، ولا تراجع يومًا عن كلمة. كان كلامه نعم، نعم، أو لا لا. الأواسط والتّنازلات عنده لها

أوقاتها الحرجة، أمّا الباقي فإمّا أبيض، وإمّا أسود. مواقفه حدّ حاسم، وقراراته سيف باتر.

قبلها، "كان"، معها "صار": قبلها، كان سيّد حياته، معها، صار عبد ازرقاقها. قبلها، كان الإنسان، معها، صار الأثير. قبلها كان الحاكم بأمره، معها، صار المحكوم بالعشق. قبلها، كان الرّجل الرّجل، معها، صار الطّفل المدلّل، يحبو كلّ يوم على حضن رسائلها، تعانق حرمانه الطّفوليّ بحنان حروفها، تحنو على قسوة أيامه بشوكولاته غزلها، تُغدق طفولة عنقه قبلاً زرقاء، تقرص خدّيه، تلاغيه، تدلّـله بلبنانيّة تفتّته غبارًا من نور.

قبلها كان المتحكّم بحياته من أبسط بديهيّاتها حتّى أدقّ تفاصيلها: وقت استيقاظه، حمّامه، قهوته الصّباحيّة، صحيفته، فطوره، تجهّزه للخروج إلى دوامه المدرسيّ. كلّ شيء منظّم. كلّ شيء في وقته، بالسّاعة، بالدّقيقة، بالثّانية، وإلّا اهتزّ استقرار سأمه، أو سقط أحد أعمدة سماء بلادة أيّامه. كلّ هذا على كثير من الاتّساع في الرّؤية، وحسن تصرّف واضح، وسرعة بديهة مبهرة، وخطط بديلة جاهزة، وحلول منطقيّة وعمليّة سريعة، فلا ذعر من مفاجأة سلبيّة غير متوقّعة، أو تململ من موقف محرج، أو خوف من طارئ خطير. كلّ شيء تحت السّيطرة! دائمًا تحت السّيطرة. عقل برمجته الخيبات، قلب نظّمته الصّعقات، خيال مزّقه بتر الأحلام.

تهاوى صرحه في أيّام. شغلته. ذوّبته. جنّنته. صار سمرهما حتّى الفجر صلاته وصومه. وكم من مرّة كَلَّ المُنبّه من إيقاظه من عشق أمسية من أمسياتهما، وفشل! وكم من مرّة حاول أن يُعيد الفلك إلى مداره وفشل! وكم وكم وكم من مرّة استرسل معها في حديث ليليّ فجريّ خسّره يوميّته الضّئيلة التي يسعى إلى جمع فتاتها حتّى يقبضها آخر الشّهر، لتقبض الضّائقة الاقتصاديّة، وقصر ذات يده على بقاياها، وعلى لسانه عبارة: "فديتك يا عمري". وكم من مرّة انسحبت في خيالها إليه، وأغرقته عشقًا محمومًا، قبل موعد حصّة من بُعد، وترك الحصّة قائلاً: يغور الشّغل، أنا معك، هيْتَ لَك. ويسقطان صريعي الرّغبات الزّرقاء، يشبعها جنسًا كلاميًّا أزرق بلديًّا، يفاجئها، تنفر منه هي الحرّة، المهفهفة، الرّومانسيّة، الحالمة، الفراشة المخمليّة، الياسمينة النّاعمة، تطالبه بالإيحاء، بـ"الجنس الأرستوقراطيّ المهذّب" فإذا به يسقط عليها، بجنس "من طين"، غائر في الإباحيّة، موغل في الفحشاء، بعاميّة صاعقة، تخجلها، تشعلها لدرجة تدفع بها إلى محو الكلام عن الشّاشة، كطفلة تغمض عينيها عن مشهد قبلة حميمة على التّلفزيون!

لم تكن تعلم أنّه كان يتلمّس المفاتيح ليشرّع طاقات مراهقة أنوثتها الأربعينيّة، فتستحيل معه امرأة.

– أعلم ماذا؟

– اِعلمي يا ثمرُ

إن لم تكوني تعلمين

سأعيد ترتيب الأماكن

لعلّني أذوق ثمرًا في اليقينْ

أعزف الألحان فجرًا للأنين

آه يا كلّ الأماكن

اعلمي يا ثمرُ

إن لم تكوني تعلمين

لم يبقَ لي من الأوطان

إلاّك امرأة

هي نساء كلّ العالمين...

تُسارع إلى تذييل الرّسالة بقلب أحمر، يختزل آهاتها، وأنّاتها، وارتعاشاتها، ورقصها: رقص، رقص، رقص...

– نور؟

– قلب نور.

– نور؟

– عشق نور.

– نور؟

– عمر نور.

كان يذوب في غنج ندائها المثلّث هذا قبل أن تسأله إن كان يحبّها، أو كم يحبّها، ولماذا يحبّها.

- أحبُّ الطّريقةَ التي

تدلّلِينَني بها

وأحبُّ اسمي منكِ

من دونِ تدليلِ

أحبُّ وقعَ أخباري

على قلبِكِ حينَ

تُثبتُ كلُّ التّحاليلِ أنَّ

فصيلةَ دمي "أنتِ"

فتصيرُ دقّاتُ قلبِك أضعافًا

أحبُّك حينَ تصِفينَ العالمَ

بالخواءِ في غيابي

وحينَ تملئينني بالنّشوةِ

كلَّ لقاءْ

أحبّكِ

وأعشقُ كلَّ الطّرقِ التي

تقولينَ لي بها

"أحُبُّكْ".

– حمل "العشقَ" إليّ، كيف أردُّه؟

وصباي مرسومٌ على شفتيه!

(٧)

أمطرها قصائد عشقٍ يُندي صحراء الغزل الزّوجيّ في روتين حياتها، مع زوجها، الطّرف الثّالث الغائب عن الشّاشة، الحاضر في الضّمير. أحبَّها وائل جدًّا. عشقها هو أيضًا في أوائل ثلاثينيّاته بعد سلسلة من العلاقات الحرّة والرّسميّة. لكنّها كانت غيرهنّ. هو نفسه لا يعرف ماذا أحبّ فيها وقتها. كان لقاؤهما غريبًا، طريفًا، غير مألوف. عرضت عليها صديقتها يومها أن ترافقها في عمل ليوم واحد: أن تقطع التّذاكر في أحد استعراضات الكلاب، مقابل مبلغ لا بأس به قد يشتري لها جينز "سلسا" أصليًّا، أو حذاء "نايكي" من الإصدار الجديد. هذا كلّ ما كانت تفكّر به العشرينيّة، الجامعيّة، الجميلة، سليلة البيت المتوسّط الحال، والتّربية المتحرّرة في الخَلق، المحافظة في الخُلُق. نعم، لقد ارتدت القصير جدًّا، والمكشوف جدًّا جدًّا، واللاّفت جدًّا جدًّا جدًّا، من دون أدنى شعور بالإحراج. لم يعرف الخجل لحياتها طريقًا إلاّ نادرًا جدًّا. كانت جريئة في لباسها، متحرّرة في آرائها، متفلّتة في تصرّفاتها، كلّ ذلك ضمن إطار البيت والمدرسة والجامعة. أمّا أن تخرج وحدها أو مع الأصدقاء أو أن تعرف شبّانًا، فذلك كان من المحرّمات التي فرضها عليها

والدها المتقوقع في قمقم الخجل الاجتماعي تحت راية: "شو بيقولوا النّاس علينا؟ هلّق بيقولوا بنتو فلتانة، فايتة ضاهرة على راسها"، وغيرها الكثير من اتّهامات النّمّامين التي أراد أبوها أن يجنّبها سجنها، فخنق انطلاقها، وقصقص جناحيها، وحبسها داخل ما هو أسوأ منها. لقد أراح ضميره، فعذّب ضميرها بخروج ودخول سريّ أسقم نفسها، وحرمها متعته. لقد حفظ سمعته في الحيّ والبلدة، فحرمها حقّها الشّرعيّ في الانطلاق بعيدًا خارجهما، تكتشف، وتتعرّف، وتخطئ، وتتعلّم، وتختبر. لقد غفا على وسادته هانئًا، وأسهدها على وسادة مراهقتها وشبابها وحيدةً، باكيةً، حزينةً، مقهورةً، ترى الصّديقات يتمتّعن بسنوات مراهقتهنّ التي لا تُعوّض، وتشاهد تِبر أيّامها الماسيّة ينسلّ بين أصابع حياتها المثقلة مللاً، وقهرًا، وسجنًا. عاشت سنوات مراهقتها مدمنة تلفزيون، وحلويات، ومقرمشات، أيّ شيء يمكن له أن يشبع جوعها الى الحياة، والاكتشاف، والتّجربة.

كان السأم رفيقها الدّائم، تهرب منه إلى خيالها، في مطالعة القصص والرّوايات ودواوين الشّعر حينًا، وفي متابعة الأفلام والمسلسلات والمسرحيّات المنقولة على التّلفزيون حينًا آخر. لم تعش حسّ انطلاق المراهقة ولامبالاتها، لم تتحسّس نيران تجارب الحبّ المبكر، لم تتأجّج بكاء وخسارة، ظلّت قاصرة

عن الخبرات حتّى بلغت جسد الأربعين بقلب وعقل مراهقة في السادسة عشرة، ارتمت في نوّ التّجربة ترنو من بعيد إلى خشبة الخلاص. كانت أمتع لحظاتها تلك التي تمضيها مع تلامذتها المراهقين، تشاركهم الأحاديث والأفكار والاهتمامات، تحدّثهم بلسانهم ومصطلحاتهم، تضحك ضحكاتهم الهستيريّة، ترقص رقصاتهم الغريبة، ترتدي ملابسهم الفضفاضة أو الممزّقة؛ معهم كانت هي، المراهقة الأربعينيّة التي لم تكبر يومًا.

على باب ملعب كرة القدم المفتوح، حيث كان الاستعراض الخاصّ بالكلاب، التقيا. كان وائل ينظّم أمر دخول الكلاب المشاركة رفقة أصحابها، ويحفظ الأمن من أيّ تسلّل قد يحصل فيدخل أحدهم من دون دفع ثمن التّذكرة، ويخسّر الشّركة المنظّمة أموالاً "بنت كلب". لفتته طلّتها، كلّها على بعضها: تلفّتها الشقيّ المغناج، نظرتها البريئة اللّامعة، إشراقة عينيها اللّوزيّتن العسليّتين، شغف حديثها عن أيّ شيء، وكلّ شيء، عودها المرسوم الحسن الامتلاء، وجهها المتناسق الملامح، وشعرها المنسدل على كتفيها، كانت "كيوت" كلّها على بعضها. رافقتها نظراته طوال ذلك اليوم الصّيفيّ الحارّ، ما بين مكتب بيع التّذاكر والملعب والبوّابة الأساسيّة. حاصر تنقّلاتها بعينين صقريّتين خشِيتا أن تضيّعاها من بينهما، بنظرة لمحَتْها هي،

أحسَّتْها، حفظَتْها في ذاكرتها البعيدة، وكأنّها كانت تعرف أنّها ستحتاجُ يومًا إلى تذكّر شغف تلك النّظرة بعد أن تصير رمادًا. صار يقتنص الفرص ليكلّمها، في أيّ وقت، وعن أيّ شيء.

انتهت مراسم الافتتاح وأخذ الجميع مكانه، في انتظار بدء العرض. وقبل أن يشارف اليوم على الانتهاء، كان قد أفصح لها عن أعمق مكنوناته: مخاوف عُمرٍ، وأسرار صداقات، ومشاكل بيتٍ، وطموحات حياة. قال لها إنّه لا يعرف لماذا ارتاح إليها، ولماذا استفاض في قصّ حكايات، والكلام في أمور، لا يعرفها أحد إلى الآن، إلّاها. استغربته جدًّا، ولولا طيبة لمستْها في حديثه، وإنسانيّة عميقة شعَّتْ من عينيه، ما كانت لتصدّق كلامه، ولكنّها صدّقَتْه، وتبادلا أرقام الهاتف، وافترقا رفيقين على دروب المعرفة.

لقاء بعد لقاء، موقف تلو الآخر، اكتشفت فيه رجلاً مسؤولًا يُعتمد عليه في كلّ شيء. كان حبّهما ينمو بالوعي، والعقل، والقلب، حبّ متوازن بين صدق المشاعر، والشّغف الجسدي. حبّ كانا يعلمان، كلاهما، نهايته. أمّا عشقها لنور، فقد علمت منذ البداية الزّرقاء، أنّ لا لون لنهايته، بل لا نهاية له قطّ.

(٨)

سألها ذات نقاش:

- أترغبين في الانضمام الى نشاطات النّادي ولقاءاتنا الثّقافيّة وأمسياتنا الأدبية؟ هذا سيفيدك بشكلٍ كبيرٍ جدًّا، وسينمّي حسّك النّقدي، كما سيأتيك بصداقاتٍ في الوسط الأدبي، وسيُذاع اسمك عبره ولو بخجلٍ خفيض.
- أكيد، أيّ شيء يقرّبني من تحقيق حلمي! سأكون على الموعد دائمًا. متى اللّقاء؟
- بعد يومين على تطبيق زوم، الجلسات تكون من بُعد، وتضمّ مؤلّفين، ونقّادًا، وطلّابًا، ودكاترة، وتناقش هذه اللّقاءات قصصًا قصيرة، أو روايات طويلة، مع مداخلات للحضور. أرسلُ إليك نصوص قصص الغد.
- حسنًا، سأحضر بالتّأكيد، وسأستمع إلى النّقد، وسأحاول أن أفنّد طريقة عملهم لأحذو حذوها، قبل أن أتفرّد لاحقًا بتفاصيل إضافيّة تشبهني وتميّزني.
- أعشق شغفك يا امرأة!

في أولى أمسياتها النّقديّة من بُعد، أصاخت سمعها إلى كلّ

كلمة، أكبّت كلّ تركيزها على أدقّ التّفاصيل: طريقة التّقديم، قراءة الكتّاب لقصصهم، مداخلات النّقّاد في مقارباتهم للعتبات النّصّية، واللّغة المستخدمة، والأسلوب المهيمن، وصيغ الأفعال، وتنامي الشّخصيّات، ودلالات الحوار، ودقّة الوصف، وغيرها الكثير من التّفاصيل التي درسوها، وشرحوها، وأوّلوها. كانت تتابعهم كلمة كلمة، فكرة فكرة، تمتصّ مناهج النّقد وحيثيّاته كإسفنجة شديدة الجفاف، هطلت عليها أمطار تشرينيّة غزيرة.

في الأمسية الثّالثة تجرّأت على كتابة قراءة بسيطة لإحدى القصص عبر زوم شات، نوّهت إليها مُديرة الأمسية، وعلّق عليها أكثر من ناقدٍ بشكلٍ إيجابيٍّ ومشجّعٍ، ما حثّ حماستها إلى رفع يدها في الأمسية الخامسة لتقرأ مداخلتها على الجميع. كانا معًا خطوة بخطوة، يشجّعها، وينوّه إلى نشاطها، وينصحها ويرشدها، إلى أن قرأت... كانت المرّة الأولى منذ تعارفهما الخطّي الفصيح الأزرق، التي يسمع فيها صوتها. المرّة الأولى التي يصير للحروف المكتوبة أوتارًا، وللأوتار ذبذبات صوتيّة، وللذّبذبات صدى. ذاب في حلاوة أوتارها. صوتها! كلّ الألحان مجتمعة، والسّمفونيّات مكتملة، والأصداء متضافرة. صوتها المنسابة قطراته القَطْريّة في ثنايا روحه. صوتها الشوكولاته

الذّائبة على شغاف قلبه. صوتها الرّنين الأصيل يؤذّن في خواطر مسجده. صوتها!!! آآآه من صوتها!!! رنّان، عذب، ملائكيّ، على لفظٍ غاية في الفصاحة، يدغدغ الحروف، يجمعها، يعيد خلقها، يلدها برّاقة، لمّاعة، في أداء إذاعيّ، احترافيّ، سليم النّبر، متنوّعه، جميل التّنغيم، صحيحه، يسقط على السّامعين ندى صباحيًّا مضمّخًا بعسل الياسمين.

- ها! كيف كنتُ؟ أحببتَ مُداخلتي لهذه اللّيلة؟

- أنت نموذج يا حلوتي. تملكين ما لا يملكونه. صوتك! آآآ من صوتك يا أنتِ!!! منتهى العذوبة!!! أتعرفين يا مليكتي؟ أنتِ سيّدة الفصحى! أقسم أنّي لم أسمع في حياتي الأدبيّة، والتّعليميّة كلّها أداءً بهذا السّحر، وصوتًا بهذا الجمال! ساحرة أنت يا امرأة! والله ساحرة!!!

لقد اكتسبت ثمر، بعد ترعرعها على المطالعة وشغفها بالأدب، وبعد حيازتها على الإجازة التّعليميّة في الأدب العربي، وبحكم سنيّ التّعليم الثّانوي العشرين الطّويلة، السّقيمة، انسيابيّة شفويّة للفصحى، يأتي منها عفو الخاطر، فلا تكلّف، ولا تردّد، ولا تلعثم، ولا تفكير مسبق بالكلمة العاميّة مقابل نظيرتها بالفصحى، بل استرسال في الخطاب، متمكّن، يُخيَّل إلى سامعه أنّها فُطمت على هذه اللّهجة وأنّها لم تعرف غيرها يومًا.

أمّا صوتها فأشاد لها به كثيرون خلال مسيرتيها الغنائيّة الفنيّة والتّعليميّة الأدبيّة. فقد كان لثمر حلم قديم قدم سنيّها الأربعين، غائر في البعد في ذاكرتها، أن تكون مطربة. امتلكت الصّوت، وصقلته بالتّدريب، والعزف، وشاركت في مسابقات عديدة لاكتشاف المواهب الشّابة، ولكنّ الفشل كان رفيق مساعيها الفنيّة الدّائم. تلك فترة من حياتها تستمتع بتذكّرها بحرقة حينًا، وتقنع نفسها، حينًا آخر، بأنّ هذا المجال لم يكن ليشبهها يومًا. فقد عرفت "وساخته" منذ البداية. منذ عرض عليها أحد المنتجين الذي أُخذ بامتلاء صدرها، وارتفاع مؤخّرتها، وجرأة نظرتها، وانطلاق تصرّفاتها، أن "ترقص" بدل أن تغنّي، مع كلّ ما يرافق هذه المهنة من تنازلات، وعري، وسفر مشبوه، وحفلات "خاصّة"، وغيرها من سمات العار التي لطالما وسمت أنواعًا من الرّقص، وبعضًا من الرّاقصين. خُيِّل إليها، لبراءة طموحها، وعيشها في زمن عمالقة الفنّ والطّرب الذين تأثّرت بأداءاتهم، وبسيرهم الفنيّة، وبمواقفهم الحياتيّة، أنّ الأمور في زمنها مشابهة. ولكن، هيهات! فسرعان ما اكتشفت بعد حين، أنّ هذا المجال الفنيّ بالتّحديد أقرب إلى الدّعارة منه إلى الغناء. وأنّ كلّ ما شاب الرّقص من شوائب في السّمعة، يشوب الغناء لا بل أكثر بكثير! حتّى وائل، تدخّل ونصحها بأن تعدل عن الموضوع،

وأن تجد لها مجالًا آخر، إن لم تكن جاهزة لتقديم التّنازلات الجسديّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة اللّازمة لتحلّق في سماء الفنّ، أمّا التّمسّك بالشّرف، والتّقوى والعفّة، فهذه مبادئ لا تُطعم خبزًا، ولا تُحقّق طموحًا.

أمّا أداؤها الإذاعيّ وطريقتها المتفرّدة في الإلقاء، فمن عند ربّها، براها بهما فطريًّا، وطوّرتهما بالتّمرين، والاطّلاع على أصول الإلقاء والتّنغيم، والعناية بمخارج الحروف، وإضفاء الحسّ المناسب في الموقع المناسب. فعرفت متى ترفع، ومتى تخفض، ومتى تلوّن، ومتى تعبس، ومتى تبتسم، ومتى تنغّم ومتى تقبض... وأذكت خبرتُها الطّويلة في التّعليم ملكةَ الحضور المسرحيّ القويّ، والثّقة العالية بالنّفس، ما جعلها تتحكّم بإحساسها بالتّوتّر أو بالخجل أو بالخوف لدى وقوفها على مسرح، أو على منصّة، أو على منبر، أو في أيّ مكانٍ عامٍّ تكون فيه محطّ أنظار الجميع. فقد كانت تعتبر وقوفها في الصّف أمام ثلاثين شابًّا وفتاة، لشرح الدّروس، وقوفًا يوميًّا على مسرحٍ، مدّة ستّ ساعات متواصلة، يتبدّل فيها الجمهور ويبقى الممثّل هو نفسه: الخطأ ممنوع، والتّلعثم ممنوع، والتّردّد ممنوع. كانت عاشقةً للضّوء، للشّهرة، لأن تُسمع، وتُرى، وتُعرف، هذا ما قوّى "كاريزمتها" الفطريّة وبلورها، وجعلها تطلّ، وتتكلّم، وتخطب

بأريحيّةٍ تامّةٍ، وثقةٍ مطلقةٍ، وشغفٍ لامتناه.

كلّ هذا تعرفه جيّدًا، ولطالما تلقّت الإطراء حوله، لكنّ أحدًا قبله لم يقل لها: "أنت سيّدة الفصحى". كانت تجنح إلى طريقة تعبيره، إلى وصفه لها، إلى ملكته اللّغويّة جنوحًا أعمى، لا يد لها في إيقافه، انخطافًا صوفيًّا ساميًا، عبثًا حاولت أن تهبط بعده إلى الواقع، أن تغرس قدميها في أرضه ثانية. كانت، مع كلّ حرف من حروفه الزّرقاء، تزداد خفّة، وترتفع طيرانًا.

- نتسامر؟
- نتسامر يا معشوقتي، فاللّيل خُلق لنا، لشِعرنا، لعشقنا.

صار السّمر اللّيليّ خلوتهما اليوميّة، يلجآن إليها من صخب الدّنيا ومشاغلها، يلتقيان في المدى الأزرق، يتغازلان، يتحابّان، يجُنّان حتّى تتعب الأيدي من الكتابة، والعيون من السّهر.

- نوري، أتحبّني؟
- *أحبّك مِلءَ جفونِ اللّيالي*

أحبّك مِثلَ ضياءِ القمرْ

أحبّك وأنتِ ربيعٌ لقلبي

وأنتِ الضّياءُ وأنتِ السَّحَرْ

وأنتِ جمالٌ حسيسٌ بقلبي

وأنتِ كلُّ جمالِ القمرْ...

- نور، أتعرف؟
- ماذا يا ثمر؟
- تصوّر؟ أنا لم أسمع صوتك بعد. لا أعرفه! يُخيّل إليّ أنه جهوريٌّ، واضح المخارج، عميق، رصين...
- اسمعيني يا ثمر.

أرسل إليها رابطًا يحتوي أداءه لقصيدةٍ رثائيّةٍ طويلةٍ كتبها لأمّه، بإخراجٍ جميلٍ، وخلفيّةٍ موسيقيّةٍ هادئة، وصورٍ معبّرة. لم يُخطئ حدسها في صوته. لكنّه كان مشروخًا بحزنٍ عميقٍ، عتيقٍ، غائرٍ في الوجع، يخرج منه الألم الشّديد جلمودًا يصيب قلب المستمع فيحطّم أبراج فرحه، في أكفان من الوجع يلفّه. "يا لعمق حزنك يا نور! يا لقسوة حرمانك!" وقع كلامه عليها صاعقًا، قاتلاً، موجعًا، مزّقها شرّ تمزيق، شعرت بعدها في كلّ تثقيلٍ منه للجيم الرّيفيّة، بثقل أيّامه، بغور وحدته، بقباحة فقره، برهافة حسّه، بشاعريّته السّامقة، بتعطّشه الأزليّ إلى الحنان، برميم روحه المدمّرة التّائقة إلى القيامة، بدموعه المتّكئة على حافّة الحروف، تسمع تساقطها باختناق الوتر على طرف حرفٍ

حينًا، بغصّة كلمة في غور الحلق حينًا آخر. كان يبكيها طفلاً يتيمًا، انشقّت روحه عن شغافها، كان يبكيها مراهقًا وحيدًا، انسلخ عالمه عن جنّتها، كان يرثيها شابًّا تائهًا، ضلّت دروبه وجهة احتوائها، كان يرثيها كهلاً مرهقًا، طحنته الحياة في رحى غيابها، كان يشهقها والدًا فقد الشّيء وما عرف كيف يعطيه، وكان ما كان من حرمان ما بعده حرمان...

اختنق الكلام تحت أصابعها. حبالٌ من الألم امتدّت من العالم الأزرق إلى عوالم روحها، تطوّق أفكارها، تعتصر الخلجات، تكتنف مساحات الرّؤيا التي انغلقت على مدى لانهائيّة اتّساع حزنه. تراءى لها شريط حياته منذ موتها المفجع، حتّى تلك اللّحظات المؤلمة.

- يا لعمق حزنك يا نور.

- ...

اكتفى بإرسال وجه باكٍ. فقد تابعها مشاهدة، واستعاد الفاجعة، واستشعر الألم، وعاش الحزن، وبكى. بكى وبكى وبكى.

- اعذريني يا ثمر، سأتركك قليلًا. سأرتاح من هول مشاعري وأعود.

قصد أن يقول، سأبكيها حتّى البكاء، ربّما يرتاح الوجع.

– أنتظرك. قلبي معك.

– ...

أرسل قلبًا أحمر مكسورًا، وغاب. غاب وأخذ كلّها معه. وصارت أسوار التّساؤلات تنتصب وتعلو لتبلغ سماء خيالها. تخيّلت طفولته المعفّرة بتراب الوحدة، المثقلة بأحمال المسؤوليّة، والرّازحة تحت نير الألم. تخيّلت وجهه الأسمر المكسوّ بغبار الضّياع، تخطّ الدّموع عليه دروبًا من الأسى تبلّل أعلى صدره العاري إلّا من "فانيلاّ" قطنيّة تمتصّها فترتسم عليها دوائر ودوائر بنيّة فاتحة، في لوحة سرّياليّة عنوانها: "منتهى الشّقاء". تخيّلته مراهقًا منكمشًا، لم تنبت له أجنحةٌ ليطير، فظلّ يسير منكسر الخواطر، هائمًا في هذا الكون الواسع، يضرب الهمّ، كُرة يدٍ استدارت حول أقصى طموحاته، فاستحالت أحلامًا مبتورة. تخيّلته زوجًا تقليديًّا، بكلّ ثروته المعرفيّة من سياسة، واقتصاد، وأدب، ورياضة، وعلم نفس، خاضعًا ليوميّاته الكادحة، راضخًا لأمر واقعه، أسير أضيق سجون النّفس إذ منعَتْه زوجتُه، سليلة الجهل والتّعصّب من أبسط حقوقه الإنسانيّة: "الشّغف". كانت قد قرأت له قصيدة أو قصيدتين غزليّتين، أدركت بحدس أنوثتها المحتضرة أنّها ليست بطلتهما، فجُنّ

تسلّطها جنونه، وانبسطت لها الحقيقة بأبشع أساريرها: إذا كان زوجها يخونها شعرًا، فكيف بالحريّ واقعًا؟ ولمّا فشلت في الإمساك به بالجرم المشهود له في خيالها المريض، بعد تقصٍّ دقيقٍ، ورقابةٍ ثاقبة، ورغم إثباته "حسن السّلوك"، إلاّ أنّ رمزيّة الشّعر، ورهافة البوح، وشعور الحبّ، ظلّت تقضّ أفكارها، وتحرمها لذّة السّيطرة، فأحسّت بانسحاب سيل الأمور من بين أصابعها، غير قادرة على الإمساك به، فجاء القرار-المقصلة: "نور، لن تكتب الشّعر بعد اليوم". وطال الجدال البيزنطيّ بينهما، وأعملت في قلبه نصل مبضعها، فشرّحت رقّة رومانسيّته، ونزف... نزف شعرًا، ومرارة، وغصّة... أدرك للمرّة الألف، وبأمسخ الأشكال، قباحة اقترافه الزّواج منها، وارتسمت أمامه جلجلته الطّويلة التي سيسيرها مطأطأ القلب، معصوب الفكر، مدى حياته.

- نور، أنت بخير؟

- ...

- نور، حبيبي، أرجوك طمئنّي على قلبك.

- ألله يا ثمر! لو تعلمين ما تفعله بي كلمة "حبيبي" من بين أصابعك! أوووووف! كيف لكلمةٍ منكِ يا امرأة أن تحييني

بعد أن كنت رميمًا؟!

- أخفتَني عليك يا نور، وحياتي، لا تغِبْ هكذا مرّة أخرى، وتتركْني رهن هواجس الغيب. خفتُ عليك يا رجل! والله خفتُ عليك.

- قوليها مرّة بعد!

- خفتُ عليك يا رجل!

- لا لا! أنا لستُ أيَّ رجُلٍ يا ثمر! ليس بعد كلّ ما كتبناه، وعشناه، وتسامرناه. أنا رجُلُك أنت وحدك! قولي " حبيبي"، مرّة أخرى.

- حبيبي، حبيبي، حبيبي، حبيبي، حبيبي، حبيبي، حبيبي.

- من أين أتيتِ يا امرأة؟! ماذا فعلتِ بي؟!

- ***في الشّعرِ***

كنتُ

في الوحْيِ

كنتُ

إلى أنِ

استدعيتني أنتَ

في تخاطُرِ الإلهامِ

إلى فردوس جنّتِك

جئتُ.

– أعشقكِ. أعشقُ حبّكِ، أذوبُ في حنانِك. هل تسمح لي مليكتي بالانسحاب؟ غدًا دوام مبكّر.

– *أااااه*

من أينَ يأتي النّومْ؟

من رقصِ الفراشاتِ

من عنادِ النَّهْدِ

من جموحِ النَّهْرِ

من هروبِ الدِّماء إليكْ؟

من أين يأتي النّوْمْ

قلْ يا رجُلي

باللهِ! عليكْ!

– حبيبتي! هيْتَ لك...

ويغرقان في نوٍّ من الجنس الأزرق، ينفذ إلى عمق الشّهوة، يلتهبان حروفًا فصيحة حميمة تارة، عاميّة فاضحة تارة أخرى، بلديّة فاجرة طورًا، في انسحاب الخيال في رحلة التّجسّد، يحترقان إثارة، يتلوّيان كتابة، أو يتبادلان رسائل صوتية مخضّبة بالتّأوّهات السّاخنة، يحتلمان تحت غطاء اللّيل، ويسقطان على مسرح الكلام منتشيين.

(٩)

قال لها ذات سمر:

- ثمر، تعالي إليّ. فلنجعل الأزرق أبيض أو ورديًّا. تعالي إليّ. أتوق إلى حقيقتك، إلى جلدك، إلى عطرك، إلى شعرك، إلى كلّ تفاصيلك. تعالي إليّ يا حلمي الأكبر، يا حلمي الأجمل! والله لولا ضيق ذات يدي لطرت الآن إلى لبنان واختطفتك وانصهرت فيك، كلّك. ولكنّك أعلم بوضعي الماليّ المزري، فراتبي لا يتعدّى المئة وأربعين دولارًا، مقسّمة ما بين المأكل والمشرب والفواتير، تطير صاروخًا فأصل إلى منتصف الشّهر وأبدأ بالزّحف لأبلغ آخره منهكًا، مفلسًا أشدّ الإفلاس. هكذا هي الحال هنا في مصر، الفقر يتآكل الطّبقة المتوسّطة ويسوّيها بالفقيرة، قلّة، وجوعًا، وغربة، ووحشة، وحاجة. آآآه لو كان الفقر رجلاً لقتلته بيديّ هاتين يا ثمر! أكرهه، ذاك الذي بتر كلّ أحلامي، وهو على وشك أن يأتي على الأجمل، والأكبر، والأقدس منها! أنت يا ثمر! أتعرفين؟ لو كنت غنيًّا، لحجزت لنا "سويت" فخمًا في فندق فينيسا، ونظّمت لك كلّ يوم رحلة سياحة داخليّة في وجهة مختلفة، من الشّمال إلى الجنوب، وطفت بك كلّ الأمكنة وسجّلت

لنا في كلٍّ منها مغامرة، ومتعة، وقبلة، وليلة... لأشبعتك غزلاً فاحشًا، وجنسًا ماجنًا!!! لحقّقت فيك كلّ ما تخيّلته وما لم أتخيّله! كلّ ما عقلته وما لم أعقله! لرَويْتُك ورويتُني من مَعينِ العشق، لنهَلْتُ من عسلِك ليل نهار... آآآآه يا ثمرتي لو لو لو! لقطفتُكِ يا ألذّ الثّمار وأشهاها!!! تعالي إليّ يا ثمر! مُرّي على غصني القاحل ليندى، ويثمر، مُرّي على عمري الآفل ليشبّ ويعود، تعالي إليّ يا ضيائي ونوري ونبضي. تعالي إليّ لأنصهر فيك وتكوني كلّك لي وأكون كلّي لك.

- أتعلم يا نور؟ حالي ليست أفضل من حالك يا عزيزي. فأنا حاليًّا عاطلة عن العمل، نابضة بالحياة، والعشق، والكتابة، والحبّ، والأدب، ولكنّي قاصرة عن أيّ مال، ولا أملك فلسًا واحدًا صدّقني. عملت منذ الثّامنة عشرة من عمري، وحاولت أن أكفي مصروفي الأنثوي بنفسي، وشيئًا فشيئًا، أيّام العزّ، صار أجري يرتفع، فأسّست وزوجي بيتنا وكبّرنا أسرتنا، وتجاوزنا معًا محنًا عديدة. كنت أشعر بأنّي قويّة بمالي، باستقلاليّتي، بقدرتي الدّائمة، من خلال شهادتي الجامعيّة العالية، وخبرتي الطّويلة في ميدان التّربية والتّعليم، على السّيطرة على الوضع مهما بلغ سوؤه. واليوم ولأوّل مرّة أشعر بالعجز الكليّ لأنّي لا أملك شيئًا، ولا أيّ شيء.

تخيّل يا نور! تخيّل أنّ تعويض عشرين عامًا من الخدمة، كان يساوي منذ أربع سنوات نحو سبعين ألف دولار أميركيّ، وقد بات اليوم لا يساوي أكثر من ألف واحد وحيد يتيم لا غير! تخيّل أنّ نصف عمري الذي أنفقته في هذه المحرقة، في هذا الأتون، لا يساوي أكثر من ألف دولار! الأعوام العشرون الأجمل في حياتي، شبابي، زخمي، عطائي، هدرتها في حقل الجزّارين من أجل ألف دولار حقير! أمّا عن حالنا الاقتصاديّة فمستورة والحمد لله، ولا ينقصنا أو ينقص أولادنا شيء، ولكن، صدّقني، فأنا لا أملك رفاهيّة السّفر إليك يا نور. يا لقساوة هذه الحياة يا رجل! كيف للأزرق أن يجمعنا وأن يفرّقنا الأبيض؟ يقولون إنّ الحقيقة أقوى بكثير من الخيال! أمضى بكثير من الأحلام! أكثر صدمة، أشدّ وقعًا! ولكنّها رست عند مينائنا وتقهقرت، ذابت، صغرت، واتّضعت! نحن لا نملك أكثر من هذا الأزرق يا نوري. أنا فهمت المعادلة، وإنّي لمستعدّة لعيشها بغرابتها وغرائبيّتها، بعذريّتها وإباحيّتها، بعقلانيّتها وجنونها. نحن لا نملك أبعد من هذا الفضاء المكتوب، وأعمق من هذه الحروف الزّرقاء. حاول أن تتقبّل هذا الواقع يا نور، ولا تكابر. اِحلم، اِحلم مدى الحلم. تخيّل، وحده الخيال ملكنا، أمّا الحقيقة، فشتّان ما بيننا وبينها!!!

- لا يا ثمر! مستحيل! مستحيل! الحبّ كائن لا يطير بجناح واحد. سيكون مسخًا مشوّهًا. عليه أن يطير بجناحين اثنين. الرّوح وحدها لا تكفي. لا بدّ من اتحاد الجسد بالرّوح ليولد الكائن الجديد. لا بدّ من اللّقاء يا ثمرتي. افهميني يا ثمر! أنا نموذج قائم بذاته لأبشع أشكال الحرمان! أنا محروم من عطف الأنثى، وحنان الأنثى، وحلاوة الأنثى، وجمال الأنثى، وعسل الأنثى، وشغف الأنثى، وشبق الأنثى، ونشوة الأنثى. أنا محروم، عن سابق قرار واختيار، من ممارسة الحبّ، لأنّني معك أيقنت أنّني لم أحبّ، ولن أحبّ غيرك يا ثمر.

حاولت أن تستفهم منه عن سبب هذا الحرمان الجنسي، مع أنّ ألف امرأة تتمنى منه كلمة، فهو سيّد الكلام، والنّساء يعشقن الرّجل المتكلّم، فكيف به إذا كان شاعرًا؟ تُرى لمَ يُلزم نفسه بنُسكٍ لا لزوم له، طالما أنّ التّواصل والاتّصال بزوجته منعدم تمامًا، وعلى كلّ المستويات؟ تُراه يستحرم على نفسه العلاقات غير الشّرعيّة، الخارجة عن نطاق حلال الزّواج؟ أم تُراه عاشق سريريٌّ فاشل؟ أم تراه ليس برجلٍ أصلاً، ويستفحل كلامًا فحسب؟ ففي النّهاية، هي لم تعرف منه إلاّ عشقًا أزرق، وجنسًا أزرق، وشتّان بين الأزرق والأبيض! دارت هذه التّساؤلات في

خاطرها، وسألته عنها، فأجابها أنّه كانت له علاقتان وحيدتان في حياته، إذا ما استثنينا زواجه الفاشل. وأنّهما كانتا ناجحتين، وأنّ كلًّا منهما كانت مشروع زواج. واضح أنّه لم يعرف في حياته، من العلاقات سوى نوع واحد: الطّويل الأمد، الجدّي. وأنّه يُخلص في العلاقة، ويفي للشّريك، وأنّه ليس "ألعبانًا" أو "زيرًا"، بل "درويشًا" جدًّا في علاقاته. الاثنتان مُدَرِّستان، وهذا يشير أيضًا إلى انحصار معارفه، وحياته في دائرة المدرسة التي يعمل فيها. وأنّه لم يطِر يومًا خارج سربها، وأنّه لم يعرف من الأماكن سواها وبيته. هو حيّ بالقوّة، ميت بالفعل. لم يعرف المطعم، ولا المقهى، ولا النّادي، ولا الفندق، ولا الشّاطئ، ولا المسبح، ولا الملهى، ولا السّينما، إلاّ في حالات ضروريّة، أو في مناسبات خاصّة، محدودة، ونادرة. لم ينتشِ من كأسٍ يومًا، لم ينخطف من رقصة يومًا، لم ولم ولم... مسكين يا نور! يا لهذا الحرمان المثلّث، المربّع، المخمّس، اللاّمتناهي الأبعاد! يا لهذا العمر المهدور في سجن التّعليم! يا لهذه العقود المنثورة هباء على صحراء هذا العالم! يا لهذه الأيّام الثّقيلة، الفقيرة، الأليمة، الرّتيبة في دوّامة الحرمان! يا لخسارتك الكبرى يا نور!

كانت حياتها بالمقابل، رغم سنوات الخدمة الطّويلة في ميدان التّعليم، حافلة بالنّبض، مفعمة بالحركة. أنهت تعليمها

المدرسيّ، وحقّقت، خلال سنوات التّحصيل الجامعي، جزءًا من حلمها الأكبر: أن تصبح مغنّية مشهورة. ولكنّ مشوارها انحصر في بعض الحفلات الصّغيرة في مقاهٍ ذات صبغة أجنبيّة، وانتهى عند هذا الحدّ الوافي غير الشّافي. ثمّ تعرّفت إلى وائل وترافقا، ثمّ خطبها، ثمّ تزوّجا. اجتهدت لتكتشف الدّنيا، لتعيش، لتخرج وترقص وتستجمّ، وتأكل وتشرب، وتختبر، وتجرّب. فقد كان لها هي أيضًا سجنها، بيتها الوالديّ، الذي حرمها متعة سنوات المراهقة، وشارف على أن يخسّرها ما بعدها، لولا التقائها بوائل الذي وجدت فيه الحبيب، والرّجل، والملجأ، والانفتاح، والحياة. عاشا معًا طويلاً، عشرين عامًا، نصف عمرها. علّمها كلّ ما تعرفه في الحبّ، والجنس، ومتع الدّنيا. ندرت الشّجارات، وانعدمت الخلافات بينهما. كانا متّفقين على كلّ شيء تقريبًا. كان يحبّها جدًّا، ويسعى إلى إسعادها، هي ابنته وصغيرته التي يستمتع بتربيتها، بريئة، طاهرة، لا تشغل باله، ولا تُتعب رأسه بمشاكل، ومشاغبات، وألاعيب، واحتيالات. صفحة بيضاء "بتريّح الرّاس". جميلة، وابنة عائلة، محترمة، شديدة الكبرياء، لا تساوم على الخطأ ولا تسامح عليه، لا تقبل على غيرها ما لا تقبله على نفسها. تلك كانت شريعتها في الحياة. ذلك كان سرّ نجاح العلاقة بينهما. وعندما "برم"

دولابه، وأفلست تجارته التي كان لها هي أيضًا توقيعها الخاص على مجموعة كبيرة من "شيكّاتها" بهدف توسيعها وتحسينها؛ وجدها جنبه تسانده، تحبّه، تحترمه، تحتمل معه تبعات وساخة بعض الدّائنين، ونذالة بعض التّجار، ووضاعة بعض المحامين، الذين لم يتوانوا عن محاولات متعدّدة في "لوي يده" بها، في ابتزازه بها، هي نقطة ضعفه الأشدّ تعذيبًا، وطفلها ذو العام والنّصف على يدها. بقدرة إلهيّة، وسعي حثيث، وصلاة دائمة، واتّكال على رحمة الله وشفاعة قدّيسيه، تخطّيا تلك المحنة العصيبة، المديدة على مدار أكثر من أربع سنوات مع ما كان لها من تبعات نفسيّة، وجسديّة، واجتماعيّة على كليهما، وعلى عائلتيهما، والأصدقاء، حاولا التّكتّم عنها، ونجحا في ذلك، فلم يعرف بالقصّة إلّا المعنيون بها. ذلك أسكت الثّرثرات، وضبط النّميمة، وساعد في تركيز جهد كلّ منهما على عمله، من أجل تخطّي الصّعوبة. حتّى أمّها، والأصدقاء، وزملاء العمل، لم يعرفوا بشيء، لم يلاحظوا شيئًا، لم يفطنوا لشيء. أدّت واجباتها على أكمل وجه، رغم الضّغوط النّفسيّة التي مورست عليها، رغم المفاجآت اليوميّة البشعة، رغم القلّة، رغم الحاجة، رغم العوز.

لن تنسى أبدًا ذلك اليوم الذي، تلقّت فيه اتّصال تهديد، من

قبل أحد المحامين "الأفاضل" يحذّرها فيه من عاقبة تجاهل الدّفع أو الامتناع عنه، وإلّا شهّر بها في المدرسة حيث تعمل، وحضر مع فرقة شرطة للقبض عليها بتهمة التّخلّف عن الدّفع، وتحرير "شيكات" بدون رصيد. خافت بل ارتعبت، التقت بالأمّ-الرّئيسة فورًا لتخبرها بقصّتها، وتطلب منها المساعدة، والحماية. لم تكذّب هذه الأخيرة خبرًا. بل طمأنتها، وأراحتها، ووقفت جنبها: "مين بيسترجي يجي ياخذ معلّمة من معلّماتي من نص دين مدرستي؟ أوّل ما بيطلّ "ريّو" الدّرك بكون هرّبتك من هون. ما تعطلي همّ. ما رح يقدروا يعملوا شي. طلعي ارتاحي وكمّلي نهارك وما تخافي. أنا حدّك". هدّأت هذه الكلمات زوابع رعبها، وجلست ربع ساعة ترتاح، قبل موعد الحصّة التّالية. كانت حصّة استثنائيّة في يوم استثنائيّ. كانت المرّة الأولى التي يدخل فيها منسّق اللّغة العربيّة الجديد، صفّها، ليراقب عملها، ويكتب فيه تقريرًا يرفعه للإدارة، كإجراء روتينيّ سنويّ. لملمت شتات روحها المضطربة، وحبست تفلّت خواطرها المبعثرة، وتضرّعت إلى الله بكلّ كيانها أن يُنطِّقها بما فيه خير مسيرتها التّعليميّة التي كانت في أواسطها. وقد استجاب الرّب حارّ دعائها ونجحت في نيل الاستحسان المطلوب وأكثر، من المنسّق، وأتى تقريره إيجابيًّا جدًّا. هذا الموقف، وغيره الكثير، طحنها،

قبل أن يُعيد بناءها : "أنثى من فولاذ"، لا تخشى شيئًا، ولا تخجل من شيء، على المستويات: النّفسيّ والاجتماعيّ والعلائقيّ. أمّا على المستوى الماديّ والسّلطويّ، فكانت ترتعب من الفقر، من الحاجة، من أن تخسر عملها وتخسر مردوده، وتخسر حياتها. لذلك رضخت مرارًا لطلبات إداريّة مجحفة، ونفّذت أوامر كثيرة ظالمة، ولم تفتح فاها مرارًا للمطالبة بحقوقها، بل اكتفت بالصّمت، والعمل بحرقة. لم تكن تعرف أنّ سنوات الظّلم هذه، ستنتهي بثورة على واقعها، وخروج تامّ عن هذا المسار الذي سلكته، عن سابق خيارٍ واعٍ أو أعمى منها، لسنوات طويلة، وأنّها ستنقذ روحها وهي على شفير الانهيار الشّامل، وستسعى إلى تحقيق ثاني أكبر أحلامها: الكتابة.

(١٠)

صار لقاؤه بها أقصى أحلامه، أكبر أحلامه، آخر أحلامه. كان يتمنّى أن يلمس قدس بشرتها، وليفتقده الله بعدها، لا يهمّ. كان يشتهي منها قبلة، قبلة بيضاء هوليوديّة واحدة، وبعدها الطّوفان. كان يحيا على أمل عناق وحيد، طويل، يدفئ صقيع ذراعيه الأزلي، عناق واحد منها، دقائق داخل عباب صدرها، كافية لتبعث شبابه الذّاوي في رماد الكهولة. ليلة واحدة! ليلة واحدة داخلها، إكسير خلود شغفه الدّائم. كان يتمنّاها بقسوة شغف الخمسين، بجرح غربة الخمسين، بعمق ظمإ الخمسين، بهوّة حرمان الخمسين! لطالما جالس صورها، وتخيّل نفسه معها، في غرفة، في مقهى، في حقل... في أيّ زاوية من زوايا الصّورة القريبة التي تتوسّطها وزوجها. زوجها. ظلّها الدّائم. يكرهه. يمقته. يكره استحلاله لها، لتضاريسها، لجنونها، لضحكتها. يكره قربه منها، تمتّعه بها، امتطاءه لها، هي الفرس العربيّة الأصيلة التي تخبّ شهوة، ولذّة. يفتح ملفّ صورها السّريّ على جهازه، وقد وسمَهُ باسْمِ: "عُمْر"، لأنّها اختصرت كلّ عمره، الماضي، والحاضر، والآتي. يقلّب في الصّور الجامدة، إلّا من تراقص بريق ضحكتها، وانبعاث شعاع عينيها، وانسدال

ليل شعرها. تخرج له منها، بثوبها الأسود الضيّق، يتفتّق عنه صدرها البارز، الصّارخ، يُتيهه شهوة، تضحك ضحكتها تلك، فتسقط في كيانه لعوبًا، يسبقها عطرها يُسكر حواسّه كلّها، تقترب منه بدلع الأربعين، بخبرة الأربعين، ترشح خطواتها سكّرًا، أكثر، أكثر، يهمّ بالتقاطها، كسمكة تتفلّت منه، تستلّ من جنبه، بِرِقّة الفراشة، هاتفَه، ووشاحًا طويلًا مدى انتظاره، تمرّره على عنقها، ثمّ على وجهه، يشهق ذرّات عطرها كلّها، ينخطف فيها، في كمالها. ببطء تلفّ الوشاح حول وركها، تشدّه، تعقده، فيمتثل قوام السّاعة الرّمليّة، المنحوت، المثير، الشّهيّ، بالنّهدين الممتلئين، الشّامخين، اللّذيذين، والخصر الضّامر على اتّساع ضمّ كفّي اليدين، وانحناءات الرّدفين المثاليّة، واكتناز المؤخّرة وارتفاعها، عصيّة، مجرمة! تضغط على زرّ في هاتفه، فترتفع موسيقى مدخل "بتونّس بيك"، بدلع مقامها، وغنج لحنها، ومثاليّة إيقاعها. كانت تعشق مدخل هذه الأغنية، تقول إنّها تحفة موسيقيّة نادرة، لم يأتِ، ولن يأتي ملحّن بقدسيّتها، وفرادتها، وسماتها. استدارت، رفعت يديها في تناغم ابتهال على دلال، وشرعت ترقص. تمايلت أمامه شهوة تتساقط عسلاً، وهو يجلس على حافّة سريره، مشدوهًا، فاغرًا فاه، كطفل مبهور بأضواء العيد. تقترب من حرمانه، تلامس بردفيها يديه المنسدلتين في

استسلام محارب، تتمايل، تجلس في حرجه، تواصل التّدلّل، ترمي برأسها على عنقه، تمرّر شفتيها عليه، تبعثر شعرها على وجهه، يهمّ بضمّها، فتنسلّ منه، تستدير، تمتطيه، يتوه في عباب نهديها، تتلوّى، تشرف على السّقوط إلى الوراء، يلتقطها، يشدّها إليه، يضمّها، ينهش عنقها، وصدرها قُبَل حرمان، يُعيد بأصابعه رسم انحناءاتها، ترسل تنهّدات قشعريرة متواصلة، يجنّ لها "شيْؤه"، تُفقده كلّ سيطرة، فيمتطيها شرّ امتطاء، بكلّ عشق الخمسين، بكلّ حرمان الخمسين، بكلّ شهوة الخمسين.

(١١)

- صباح الحبّ والأمل والتّفاؤل.
- صباحنا يا نور.
- كيف هي مليكتي اليوم؟
- بخير.
- أشتاقك! أرسلي إليّ صورة، الآن.
- ولكنّي استفقت للتّو، وشكلي مخيف!
- بل شكلك مثاليّ في كلّ الأوقات، وكلّ الأوضاع! أعشق شكلك يا امرأة! هيّا لا تُعاندي رجُلَكِ، وأرسلي الصّورة.

يشتعل شهب نار في نهرها، يمتدّ إلى قلبها، فرأسها. فراشات، فراشات، فراشات! رقص، رقص، رقص! هذا ما تفعله بها حروفه، كلماته، صيغة أمر رجولته على مضارع أنوثتها. لم تكن تعرف أنّ هذا التّأثير لن يخبو شعاعه، بل سيستفحل فيها دائمًا عند ذكراه.

التقطت لها صورة وأرسلتها.

- يا عمري! ملكة في كلّ حالاتك! وأنفك هذا! آآآه من أنفك يا امرأة!

كان يعشق أنفها الإغريقي، المثاليّ، الطّويل، المسحوب على ارتفاع قليل في الأرنبة. أنف يجعل وجهها يبدو كوجه فرسٍ عربيّةٍ أصيلةٍ.

ترسل وجهًا خجولاً يخبّئ عينيه بيديه.

– آآآآه من غزلك يا شاعري. أذوب في غزلك يا أنت!

– ألا يغازلك زوجك؟

– زوجي؟ زوجي لا يراني ليغازلني.

– تقصدين أنّه يعمل حتّى اللّيل، ويعود فلا تلتقيان، أو نادرًا ما تتجالسان، وتتحاوران؟

– بل أقصد أنّه "لا يراني". نتجالس طويلاً، ولا يراني. نتحادث في أمور شتّى، ولا يراني. يحبّني "حبًّا أعمى"، لدرجة أنّه لا يراني.

– أووووووف! كلّ هذا الجمال والكمال بين يديه ولا يقدّره؟؟!! كم أحسده يا ثمر، وكم أكرهه!

– أتعرف يا نور؟

– ماذا يا عشقي؟

– عشرون سنة لنا معًا، أحبّني فيها حتّى العبادة. لم يتوانَ يومًا

عن محاولة إسعادي بكلّ الطّرق. أحبّني بقدسيّة، بوفاء، بمثاليّة. وثق بي ثقة تامّة، حمّلني أوزاره وأسراره التي لم يسلّمها لغيري. أطلق جناحيّ للرياح، وتركني أطير وأفعل ما أشاء. احترم "شخصيّتي النّافرة"، و"نبضي المستفزّ"، و"صوتي العالي"، بل وكان يحبّ ميزاتي هذه ويقدّرها. عشرون سنة لنا معًا، أثبت لي، بتصرّفاته، وأفعاله، ملايين المرّات حبًّا عميقًا لا يُقاس. كان رجل الأعمال، لا الأقوال، وأنا كنت صغيرة جدًّا، أحبّ أن أسمع كلام الحبّ والغزل. قلت له ذلك مرارًا، وناقشته في الموضوع ذاك تكرارًا، وكان، في كلّ مرّة، ينهي حديثه بـ: "ثمر، أنا أحبّك جدًّا. أنت حياتي. ولكنّي لا أجيد التّعبير عن ذلك بالكلام. أفعالي تثبت لك حبّي. ما قيمة الكلام إذا لم يرتبط بفعل يجسّده؟ ما نفع أن أُغرقك بكلام جميل، وأن أُحزنك بموقف، أو أخون ثقتك في آخر؟ لا يا ثمر، أنا هكذا، تصرّفاتي تحكي عنّي". اقتنعتُ مرارًا، على مضض، بكلامه، وتناسيتُ ما اعتبرتُه وقتها سخافات شابّة لا تعرف مصلحتها، ولا تجيد ضبط سلّم أولويّاتها. فهناك المهمّ بالنّسبة إليّ، وهناك الأهمّ، والأهمّ هو حياتي الهانئة مع وائل، وتصرّفاته اللّائقة، الحانية، المثاليّة تجاهي. طويت هذه الأفكار، ووضعتُها في

ظرف لاوعيي، ورميتها في خزينة ذاكرتي البعيدة، وتناسيتها لعشرين عامًا. أتعلم يا نور؟ لطالما رآني وائل طفلة ربّاها، وشابّة رافقها، وصديقة قدّرها، وزوجة أحبّها، ولكنّه، في حياته كلّها، لم يرني امرأة عشقها، أو أنثى شُغف بها. تخيّل المرّات التي ارتديت فيها أكثر الثّياب إثارة، وسألته عن رأيه في شكلي، آملة في سماع غزل يشفي غليل أنوثتي المتفجّرة، فأُصعق بنظرة خائبة، أو ابتسامة واهية، أو إطراء رسميّ بارد، شديد الاقتضاب، لا يروي ولا يشفي، وإذا ألححت عليه في إبداء الرّأي قال: "أنت تعرفينني جيّدًا يا ثمر، إذا لم أُعلّق على ثيابك فذلك يعني أنّها جميلة، وإذا كان هناك ما لم يعجبني، عندها أشير إليه"، فأسكت عن عظيم خيبة أنوثتي وأتناسى. تخيّلِ المرّات التي تبرّجت فيها وارتديت ملابس السّهرة، فظهرت بأبهى إطلالة، وسألته، ونحن بين جموع النّساء اللّواتي يُحطن بنا، بعد تفحّصي لهنّ، ثقة منّي بأنّي الأجمل، لا لغرور، بل لموضوعيّة ويقين بمواصفات الجمال العامّة: "حبيبي؟ ألستُ الأجمل بينهنّ كلّهنّ؟" فيكتفي بالابتسام والتّجاهل الصّاعقين لامرأة تتوق لغزل يروي أنوثتها العطشى. قد يبدو كلامي للبعض سخيفًا، وتبريرًا خائبًا لخيانتي لوائل ولو في العالم الأزرق،

ولكن هذه هي الحقيقة. إنّ واحدًا من أسباب انجذابي إليك يا نور، هو أنّك أجدت إرواء صحراء أنوثتي بغزلك السّاحر. أمّا عن الاهتمامات الأدبيّة المشتركة، والشغف بالشّعر والقصص، وجنون الحروف الأزرق، والعلاقة الغريبة السّاحرة التي تجمعنا، وهذا التّوق إليك، إلى ما بيننا، إلى أحلامي القصصيّة الخياليّة التي أحقّقها معك كتابة، فتلك حكاية أخرى. فوائل بعيد أشدّ البعد عن اهتماماتي، حتّى بدأت أشكّ بأنّ هناك ما يجمعنا ما عدا الزّواج، والأولاد، والعشرة الطّويلة، والحبّ البارد. أنا أقسو كثيرًا في كلامي هذا على وائل وعلى نفسي. آآآه ما أمرّ الحقيقة التي كشفها عشقك لي يا نوري! ليتني لم أعرفك يا أنت! ليت حروفي لم تلتقِ حروفك، ولا لامس الأزرق شغاف قلبي يا نور! ليتني بقيت زوجة وفيّة، ولم أصِر على يديك "امرأة"!

- أتندمين على أجمل ما عشته في حياتك؟ على أروع ما جرى لك في عمرك؟ أتندمين لأنّك عرفتني يا ثمر؟

وذيّل كلامه بوجه حزين جدًّا.

- نور، أنت لا تعرف شيئًا، ولا أيّ شيء. كلّ ما تعرفه عنّي، أنّني عاشقة مثاليّة، أنثى السّعادة التي وجدتها بعد رحلتك الطّويلة، المريرة، حلمك الأكبر الذي يشارف على التّحقّق،

لكن لا يا غلغامش! أخشى أن لا زهرة سعادة لك عندي يا نوري. فأنا ولو قُدّر لي أن ألتقيك، فلن يتخطّى لقاؤنا سحر يومين أو ثلاثة على الأكثر. لن أكون يومًا لك يا نور.

- أنت تحكمين على نفسك بالانطفاء، بالموت يا ثمر! كسّري القيود التي تبعدك عنّي! إن كان لقاؤنا منتهى سعادتك، إن كانت حياتك الباردة منتهى تعاستك، فلمَ تبقين؟ ومن أجل ماذا؟ أستدفنين شغفك وضوْءَك وشعاعك عشرين سنة أخرى؟ من أجل من؟ من أجل ماذا؟ سمعتك؟ أولادك؟ النّاس لن يرحموك أخْلَصتِ لحزنك أم هربت إلى سعادتك، وفَيْتِ لزوجك يائسة، أو خُنتِه سعيدة. وأولادك سيكبرون ويستقلّون ويصنعون حياتهم بعيدًا عنك، وستذهب كلّ تضحياتك هذه سدى. فكّري يا ثمر، فكّري بشغف، بأمل، بثورة، كم بقي لنا من العمر نضيعه في تضحيات وتنازلات؟ اتركي كلّ شيء وتعالي إليّ.

- لا يا نور، أنا لا أترك أولادي. لست أنا "الأمّ الغولة" التي تذبح طفولتهم، وتقتل مراهقتهم، وتضيّع مستقبلهم، وتخنقهم بكلّ العقد النّفسيّة القاتلة، وتتركهم نهش الحرمان من الحنان، والاسترسال في الضّياع، والجنوح إلى الانحراف. لا لست أنا تلك التي تئد أولادها أحياء يا نور. أنت يتيم

الأمّ وتعرف قسوة فقدانها، أتتمنّى هذا الحرمان، والأسى، والحزن، والألم لأولادك؟ لأولادي؟ لا يا نور، لا! أنا لن أترك عائلتي. اِفهمْ طبيعة غرابة ما يجمعُنا، واكتفِ بلقاءٍ مقتضب ليومين أو ثلاثة على الأكثر، نعيش على ذكراها، ونبني قصور شغفنا عليها، ونستقي مَطَرَ وحْيِنا منها.

- عديني يا ثمر! عديني أنّك ستحقّقين حلمنا الأكبر، أنّك ستجدين طريقة، أنّك ستصنعين المعجزة، أنّك ستأتين إليّ مهما كان الثّمن.

- أعدك يا نور. أعدك.

ربطَتْ نفسها بوعد شرف أصيل، لا يمكن نكثه. فهي التي لم تنكث وعودها يومًا، ولن تفعل ذلك مع أقدسها، وأجملها، وأحلاها. أمضت وقتها تشرّح المشكلة، وتفنّد حيثيّاتها. وضعت حلمها نصب حماستها، سنّت كلّ أسلحتها العقليّة والنّفسيّة والجسديّة، جيّشت كلّ إمكانيّاتها ومعارفها، وانطلقت. مشكلتها لا تنحصر بالقصور المالي فحسب، بل عليها تجديد جواز سفرها، والكلّ عالم بأزمة جوازات السّفر في لبنان. فالحصول على واحد مستعجل، لن يكلّفها مبلغًا ضخمًا من المال فحسب، بل سيتطلّب منها مجهودًا عظيمًا، وتنقّلات كثيرة، وانتظار طويل! ولكن لا بأس، الأخيرتان مقدور عليهما،

المهمّ هو المال. عليها أن تؤمّن مبالغ كبرى من المال لجواز السّفر، وتذكرة السّفر ذهابًا وإيابًا والأوتيل ومصاريف ثلاثة أيّام في مصر. ثمّ إنّ وائل، ورغم انفتاحه وتحرّره لن يقبل أن تسافر وحدها، وإن قبِل، فماذا ستكون حجّتها لتسافر وحدها؟ وإذا عرض أن يرافقها، كيف ستتهرّب من الموضوع؟ كيف تقنعه بوجوب سفرها منفردة؟

- يا ألله! العوائق كثيرة جدًّا! تبًّا لعشقك الأزرق يا نوري!

لطالما كانت، كمعظم النّساء، هاوية لشراء الثّياب والأحذية والذّهب.

- نعم، الذّهب! هذا هو الحلّ! الذّهب!

لطالما اشترت قطعًا من الذّهب، احتاجتها أم لم تحتجها، في وقتها أو في غير وقتها، أعجبتها أم لم تعجبها. كلّ ما كان يهمّها، أوّل ما يجتمع في محفظتها مبلغ محترم، أيّام "الألف وخمسة"، أن تهرع عند صديقها "الجوهرجي" في برج حمّود، سوق الذّهب بامتياز، الذي كان يجمع القطع "الكسر"، أو المرهونة، أو المباعة، الجاهزة للتّذويب وإعادة الصّنع، ويتّصل بها ليعرضها عليها بثمن "لقطة" جدًّا للغرام الواحد، فتكون الصّفقة مربحة لكليهما. لم تكن تتكبّر على النّعمة، ولا أنفت

نفسها من وضع الذّهب بعد غيرها، ولا غرّها شراء الجديد وارتداؤه قبل الآخرين. كان تفكيرها عمليًّا، ادّخاريًّا، احترازيًّا لمصائب الزّمان الماليّة التي بُليت وزوجها بإحداها، فاشتدّ حرصها، وانتباهها، وتواضعها. كان هذا طبعها: "التّوفير".

- عشقي! ويْنِك؟

– هنا يا نور، كنت أفكرّ في حلّ لمشكلتنا، وأظنّني وجدته.

– ها؟؟!! ماذا!!! وجدت حلاًّ؟؟!! بل أنتِ من ليس لها حلّ يا امرأة!! هيا بشّريني يا ثمرتي!

– روق، روق! دعني أُنْهي ما بدأتُه، ومتى اكتملت الخطّة، أُطلعك عليها.

(١٢)

أمضت الأيّام التّالية ترسم الخطّة المناسبة للحلّ. ناقشت وائل في موضوع حبّها للسّفر، واكتشاف العالم، هذا الشّغف الذي امتلكته منذ صغرها، ومنعتها ظروف العائلة، والتّعليم، وكره وائل للسّفر من عيشه وممارسته. نجحت، بحنكة الأربعين في إقناعه بحاجتها إلى تحقيق طموحاتها كلّها، فقد فاتها الكثير، ولم يتبقّ لها سوى خيط رفيع من شبابها تستمتع فيه بالسّفر والسّهر. أفهمَته أنّها لن تضيّع مزيدًا من السّنوات في الفراغ، وأنّها ستستفيد من كلّ دقيقة، وستقتنص كلّ فرصة. وهذه إحدى الفرص المتاحة لها في أن تسافر إلى مصر مع مجموعة من الصّبايا ضمن "تور" تنظّمه إحدى شركات السّفر إلى القاهرة، لمدّة ثلاثة أيّام، لزيارة الأماكن الأثريّة والسياحيّة المعروفة، وأنّها تستأذنه في ذلك لتقوم بحجز مكان لها، قبل أن تنفذ الأماكن المحدودة. وعندما سألها عن التّفاصيل المتعلّقة بجواز السّفر المنتهي الصّلاحية، والتّكاليف، طمأنته إلى أنّها ستهتمّ بهذه الإجراءات، وأنّها باعت قليلًا من ذهبها لتحقّق أحد أجمل أحلامها: السّفر لاكتشاف العالم، إذ لم يعد همّها ادّخار الأشياء الفانية في حياتها، بل عيش اللّحظات الخالدة في ذاكرتها.

كان مردود الذّهب كافيًا لمصاريف جواز السّفر، الذي حجزت له، إذ نجحت بعد جهد جهيد في الحصول على موعد من الأمن العام على المنصّة الخاصّة به، التي لا تفتح إلاّ من الساعة الثّامنة إلاّ ثلاث دقائق، حتّى الثّامنة والخمس دقائق، وتقفل مباشرة في وجه طالبي المواعيد. بعدها توجّهت إلى مركز الأمن العام، وانتظرت ساعتين وسط التّزاحم، والوسائط، و"التّشاطر"، قبل أن تدفع الرّسم المطلوب للحصول على جواز سفر مستعجل، ثمّ عادت إلى المركز إيّاه بعد ثلاثة أيّام، لتستلم الجواز، حيث قاست مرارة الانتظار نفسها. ولكن، لا يهمّ! صار الجواز بين يديها! بوثبتها هذه اقتربت خطوات كثيرة من الوفاء بوعدها لنورها، وسحبتها رمال الذّنب المتحرّكة أغوارًا عميقة في خيانتها لوائل. كذلك غطّى مردود تلك القطع الذّهبيّة ثمن التّذكرة، والإقامة لثلاثة أيّام، بعد أن اتّصلت ببعض شركات تنظيم السّفريّات لتحصل على عرضٍ جيّدٍ يمكّنها من حجز غرفة في فندق أربع نجوم، في القاهرة، كامل المصاريف من طعام وشراب مدّة ثلاثة أيّام، قدّرت من خلالها المبلغ الذي عليها تأمينه. أخيرًا! جهّزت كلّ شيء، وسدّت كلّ الثّغرات. المشكلة حُلّت بسلاسة ودهاء.

– نوري!!!

- قلبي

عمري

عشقي

أرسلت إليه صورة جواز سفرها. فردّ بوجه متفاجئ. ثمّ ألحقتها بصورة تذكرة السّفر لمدّة ثلاثة أيّام، بعد شهر من يومها.

- ثمرتي! درّتي! جمرتي! يا كلّ كلّي! يا أنا! أخيرًا سنحيا الحقيقة البيضاء؟ أخيرًا سنهجر العالم الأزرق؟ أخيرًا ستصبحين نغمًا يصدح، وجسدًا يرقص، وضحكة ترنّ، ووجودًا يملأ وجودي؟ أخيرًا ستستحيل صورة القبلة، شهقة، ورمز الوردة، عطرًا، ومجسّم العناق، ضمّة! أخيرًا سأراك، وألمسك، وأستنشقك، وأذوقك، وأسمعك! أخيرًا يا ثمر! أخيرًا سأحقّق أجمل أحلامي! أكبر أحلامي! آخر أحلامي! أخيرًا سأكسر لعنة الأحلام المبتورة، وأبتر عقدة الفشل من وسطها. أخيرًا يا ثمر! أخيرًا سأصير اسمًا على مسمّى، نورًا في حياتي الطّويلة المظلمة الظّالمة!

- نعم يا نوري! نعم! أخيرًا سيتّحد النّصفان الهائمان في تيه الكون منذ الأزل! أخيرًا سيتجاذب المغناطيسان رغم أنف قوانين الفيزياء! لأنّه ليس للعشق قانون! ليس للشّغف نظام!

أتعلم يا نوري كيف أرسم أيّامنا الثّلاثة في خيالي؟

- قولي يا ثمرتي! فاجئيني!

- أصل إلى مطار القاهرة، أجرّ أمامي حقيبتي وأحلامي. أحثّ الخطى، أبحث عن طيفك بين المستقبلين، تلمحني، بقصّة شعري التي تحبّها، بملابسي الرّياضيّة الخفيفة جدًّا، القصيرة جدًّا، بشغف ابتسامتي، وضوء عيني المتفرّس في الوجوه المتشابهة. كطفل أضاع أمّه لحظات في المتجر الكبير، ثمّ عثر على طرف تنّورتها بين الجموع، تومئ بكلّك، تكاد تطير، تصرخ: "ثمر! ثمر! هنا، هنا إلى اليمين! ثمر!" ألتفت ناحية الصّوت، أراك، نتراكض حتّى آخر الحديد الفاصل بين وجودينا. أخيرًا، وجهًا لوجه، جسمًا لجسم، في البلد نفسه، في التّوقيت نفسه، أخيرًا "معًا"! نغرق في جليد اللّقاء الأوّل: تمدّ يدك المرتعشة، يتصافح شوقانا، أقترب منك أكثر، تتّسع عيناك، أكثر، أقبّلك على خدّك الأوّل هامسة في أذنك: هاي يا حلو؛ أنتقل إلى الثاني هامسة: "ça va؟" تشهقني وعطري وكلّي، شهقة طويلة تقطع أنفاسك. تتسمّر في أرضك، تجفل عن وعيك. أهزّك غامزة ممازحة: نور، يلاّ ما بدنا نفل من هون؟ ولّا حاجزلنا سويت بالمطار؟ تعود شيئًا فشيئًا إلى وعيك المسروق. إيه؟ ها؟ آه! آه! طبعًا، طبعًا،

اتفضّلي، اتفضّلي...

- الله يا ثمر! الله على خيالك! اللهّ على لغتك، على حروفك، على أسلوبك، على نبضك، على شغفك! إنّه مشهد يوشك أن يتحرّك، صورة على وشك أن تتجسّد، جمود على وشك أن ينبض! الله عليك يا ثمر!

(١٣)

تسارعت الأيّام بعدها، حالمة، آملة. اشتدّ ازرقاق العلاقة بينهما. تسامرا كلّ يوم حتّى انبلاج الصّبح. تبادلا القصائد عشقًا، وحبًّا، وعتابًا.

- *لي عندكِ قلبٌ أشكّ يعود لي*

خلّيهِ عندكِ، وأكرِمي مثواهْ

وتبسّمي في وجه كلِّ خواطرٍ

مرّتْ بنا ولْتَعْلَمي

جَبْرُ الخواطرِ ثمرتي

كلُّه لله.

- *فتايْ*

عشقي

مُنايْ

كلّما قلْتَ فيَّ

شعرًا

أو نظمتَ

مقالْ

أرنو إلى الآتي

بعد الأيّام الثّلاثة

وتثبتُ رؤايْ

بعدكَ يا قاتلي

الباقي من عمري

مُحالْ...

- ولماذا ثمرْ؟

ثمر!

ثمر رداءْ

يتدثّرُ فيها الأحياءْ

ثمر نداءْ

من طين الأرض تسكنني

وإليها أعودْ

فثمرُ دليل جبّارْ

أنّ الرّوح هي السّكنى

ثمر...

لغزُ الألغازْ

لحظةُ إعجازْ

تتحطّمُ فيها اللّاءات...

وتتوالى القصائد والرّدود طازجة، نديّة، ملؤها الشّغف الآنيّ، تنساب حروفها على الشّاشة الزّرقاء ماء ندى على فم ورد، يرسلها فتتلقّفها عيناها، وتشهقها حواسّها، فتشتعل بها جنونًا، ووحيًا...

- ثمر، أرسلي إليّ صورة خاصّة، خاصّة جدًّا، صورة لنور، نور وحده.

تجاهلت قصده واستفسرت بحنكة تجاهل العارف.

- ماذا تقصد يا نور بـ"صورة خاصّة جدًّا"؟

- بل فهمتني جيّدًا جدًّا يا ثمر. ألا تعرفين أنّ جزءًا عظيمًا من إعجابي بك كان ذكاؤك؟ هيّا صبّري حرماني بوهم مرئيّ، يجسّد تضاريسك الشهيّة، وأماكنك السريّة. أتوق لتفّاحك،

لنهرك، لمواطن أنوثتك. لا تجعليني أنتظر أكثر. أرسلي الصّور، أنا في انتظارك.

صعقتها وقاحة طلبه. فلطالما رأت فيه العاشق الأفلاطونيّ الذي يصونها ويحميها من نسائم الهواء حتّى لا تجرح شعورها، لطالما حسبته المحبّ الشّهم الذي لا يشهّر بها، ولا يتخطّى خطوط الشّرف الحمراء. شعرت للحظات بأنّها عشيقة رخيصة، بل زوجة خائنة وضيعة، بل سلعة تلوكها الأفواه، وتدوسها الأقدام. تخيّلت نفسها عارية، تأخذ لنفسها الصّور الحميمة، مثل مومس في موقع عملها. تخيّلت صورها متداولة في مواقع التّواصل الاجتماعيّ، بعد نجاح أحد المقرصنين في سرقتها عن هاتفه، رغم شدّة حرصه على تخبئتها في ملفّات سريّة للغاية. فهي إلى الآن، قد نجحت في إخفاء كلّ دليل قد يدين علاقتها به. كانت تحرص على محو الدّردشات دائمًا، ولا تحتفظ بأيّ منها، وتحلّفه بمحوها من هاتفه كذلك فيرسل إليها كلّ ليلةٍ صورة لصفحة الدّردشة فارغة، كما كانت تنشر على صفحتها كلّ صورة ترسلها إليه مهما بلغت بساطتها، كي يُظنّ، إذا ما وُجدت على هاتفه، بأنّه سحبها عن الفايس المفتوح للجميع بحكم كونها أديبة، وتسعى إلى نشر كتاباتها. وهي لا تنوي أن تقع ضحيّة غلطة شاطر بمليون! لم تتقبّل الفكرة التي قلّبتها

في رأسها كملعقة حائرة في كوب شاي: إذا فلتت من شباك المقرصنين، فكيف تتفلّت من شرك المقرّبين من أفراد بيته؟ هبْ ابنه احتاج هاتفه في أمر، وقلّب فيه، وعثر عليها؟ هبْ زوجته المتسلّطة غافلته يومًا أثناء استحمامه، وألقت القبض عليها خلال تجسّسها على هاتفه؟ هبْ، وهبْ، وهبْ... كميّة احتمالات الفضيحة لا تُحصى ولا تُحصر ولا تُعدّ. لا، لا، لن تقع في فخّ التّسرّع، لن تأخذ بها الحماسة، لن يجنح بها جنونها إلى فعل هذا الأمر. لا، لن تقبل بتنفيذ هذا الطّلب الوقح.

- لا يا نور، لقد أخطأتَ في العنوان، ليست ثمر من تقوم بهذه "الحركات"! كيف تنظر إليّ يا نور؟ أوتحسبني مومسًا محترفة أو عارضة رخيصة لأستجيب طلبك المهين هذا؟ لقد خاب أملي فيك يا نور.

- ثمر، حبيبتي، افهميني، أنت إلهتي، ومليكتي، وأنا أعبدك. ما هذا الذي تقولينه؟! تقولين إنّك تعشقينني، وتكتبين لي القصائد، وتمارسين معي الحبّ الأزرق، وتخجلين من أن تريني مفاتنك؟ أو تخافين منّي؟ أنا لا أفهمك!

- أنا لا أخجل منك يا نور، ولا أخاف منك قطعًا لا! أنا أثق برجولتك، أثق بوفائك، أنت سيد الرّجال. ولكنّ طلبك هذا أهانني، رخّصني في عيني نفسي، شعرت بأنني سلعة تُعرض

وتُصوّرْ، تُباع وتُشترى. احترمْ إرادتي يا نور، ولا تجبرْني على ما لا أريده. اتركْني على راحتي، ولا تشعرْني بذنوب التّقصير تجاه عشقنا.

– حسبتُكِ ركبتِ البحر، وتركتِ المرساة على الشّاطئ. ظننتُكِ صرتِ لي بكُلّك، ظننتُنا انصهرنا وصرنا واحدًا لا فوارق بيننا ولا حواجز. أنت امرأةٌ تحبّ بعقلها، حسبتُك أحببتِني بقلبِك. أهنّئُكِ على هذا العقل، وهذا التّحكّم المطلق بكلّ شيء، حتّى العشق.

– أنت تعلم يا نور أنّني لن أكون لك أبدًا، أنا لزوجي، وهذه حقيقةٌ لا مفرَّ منها. تقبّلْها وعشْ معها، أنا أعشقكَ، أجنُّ فيكَ، أتوقُ إليكَ نعمْ، ولكنْ ضمنَ حدود المنطق، فأنا لن أخسر عائلتي على حساب جنوني. تحدّثنا في هذا الموضوع مرارًا وأنتَ ما زلتَ تصرُّ على أن أصيرَ لك.

– ثمر، قولي لي، أما زال زوجك يواظب على امتطائك؟ صِفي لي الأمر بالتّفصيل. أريد أن أعرف كيف يحبّك، كيف يلمسك، كيف يلجُك، كيف وكيف وكيف... فكرة جسدك بين أحضانه، فوق جسده، داخله، تقتلني! تجنّنُي! افهميني يا امرأة!

- نور، لمَ تُصرّ على أن تعذّب نفسك بهذه التّفاصيل؟ أنا زوجته، حلاله، ونحن نلتقي باستمرار أكيد. ولكن اعذرني يا أنت، فأنا لن أحكي تفاصيل غرفة نومي لك. أرحْ نفسكَ، وتوقّفْ عن جلد ذاتِكَ بهذه الأفكار. افصلْ يا رجل! تمتّعْ بما نعيشُه، ودعِ القافلةَ تسير.
- أتفكّرين بي وأنت معه؟ قولي؟ أأستحوذ على خيالك؟ أتفكّرين في غزلي الفاحش، في جنوننا لتُحسّني من أدائك؟
- لا يا نور، عندما أكون معه، أكون له بكلّي، بقلبي، وعقلي، وجسمي، يكفيني شعوري بذنب الخيانة الزّرقاء، لن أتحمّل نير ذنب خيانة الفكر!
- طيّب، تمام.
- نوري، أتعشقني؟
- أنا أعبدُكِ يا ثمر، وأنت تعبُدين "شيء" وائل!
- قفْ عندك يا نور! لا أسمح لك! لن أسمح لك! لقد نسفت كلّ الحدود! سأنهي حديثنا هنا، ولن أكلّمك حتّى تعتذر شديد الاعتذار، واحذر! إن قبلتُ هذه المرّة باعتذار، واكتفيت بفُراق مؤقّت، فقد لا أقبل بشيءٍ في المرّة المقبلة، ولا أكتفي إلاّ بفراقٍ نهائيّ. باي.

محت المحادثة كلّها كعادتها، وفصلت الإنترنيت عن هاتفها تمامًا، كي لا تترك له مجالاً ليكلّمها قبل اليوم التّالي. حدث ذلك حوالى الثّالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، أي أنّها حكمت عليه بانفصال عشرين ساعة على الأقلّ. أمضت تلك السّاعات تفكّر في وقاحته، في انتهاكه كرامتها، في تجرئه المبتذل! أيُهينها مرّتين في اليوم نفسه وتسكت له، وهي الحرّة التي تعشق بكرامة؟ طبعًا لا، ربّما كان عليها أن تقسو أكثر بعد في عقابها، أن تترك الفراق مفتوحًا حتّى إشعار منه باعتذار محترم، جليل، عظيم، قد، قد، قد، يغفر له فعلته الشّنيعة تلك بحقّ كرامتها المخمليّة. أمّا هو، فلا يعرف كيف مضت عليه ساعات فراقه الأوّل عنها منذ أكثر من شهرين لهما معًا. لم يكن يعرف أنّها صارت كلّ حياته! أنّها سكنت حروفه، أنفاسه، أيّامه، أفكاره، كلامه... كلّما حاول أن ينساها ويفعل شيئًا، ولو بسيطًا جدًّا، كأن يأكل، أو يمشي، أو يخرج، وجدها فيه، معه، أمامه، بين عينيه!

" يا أللّه! كيف أهرب منك يا ثمر؟! ماذا أفعل بطيفك السّاكن جوارحي؟ كيف أخرجك من بين عينيّ، من كلّ شيء، من كلّ شخص؟ أوووووف يا لك من مجرمة! عشرون ساعة يا كافرة! عشرون ساعة من دون حروفك؟ جنونك؟ عشقك؟ كفرت بك يا أنت! كفرت بك يا امرأة تذيب الصّوان! كفرت بك يا ملحدة!".

(١٤)

- صباح الاعتذار

أنا غبي

أنا آسف

أنا فقدت السّيطرة على عقلي!

لقد شلَلْتِني يا امرأة!

أعتذر جدًّا! "عنجددد عنجددد عنجددد" أنا آسف. لن يتكرّر هذا الأمر أبدًا. سأتمالك نفسي حتّى أملكك يا أنا.

لم تُجب مباشرة. تركته يحترق برماديّ الواتس قبل أن يضيء الأزرق، أن قرأت اعتذاره. قرأته، قبلته، سامحته، فهو سيّد كلّ العشّاق! كلماته تجنّن أنوثتها، تُراقص فراشاتها، عشق، عشق، عشق! رقص، رقص، رقص! ولكنّها لم تجب. كانت تعشق الـ "عنجد" من فمه. أربعة حروف سحريّة، تسقط سقطة حرّة في نهرها. يغنج بها بلكنته المصريّة المحبّبة، يحاول أن يتقمّص اللّبنانيّة فتصدر عنه شهيّة على شبقها، طيّبة على شوقها. سكتت. كانت تمعن في تشويقه، في تعذيبه، حتّى يقدّر الجوهرة ويحرّم على نفسه خدشها مرّة أخرى.

- هل تعذُرينني ثمْرتي

أنا للتّصالحِ مستعدٌّ

قلْتِ: وما قبْلَ التّصالح بيننا

فبِمَنْ تُشبِّهُني إذنْ؟

قلتُ: بعطرِ الياسمين المستبدّ

ضحِكْتِ وشرعْتِ تقبّلينني

من فمي

من وقتِها

قسمًا بذاتِ الله

أنا كلّما أحدٌ يحدّثني

كأنّي أخرسُ

دومًا أشيرُ ولا أرُدُّ

أخشى على الطّيبِ الذي

تركتهِ نهرًا في فمي

عني يغيب لحظةً

وهو الذي

في كلّ وقت ٍيستجدّ

طيب الـ "ثمر" لو

يغادرُ روحي

هو مستحيلٌ، مستحيلٌ

أن يُرَدّ!

كش ملك! سقطت حصونها! هُزمت جيوشها! هذا الاعتذار، كيف تردُّه؟ وقد غزل في قلبها وفكرها نوره، وأينع على غصنها وعمرها ثمره، وطاب في سمعها صداه وصوته!

- جبّار أنت يا شاعري!

قتلتني يا رجل!

- ان شاء الله أنا ولا أنت يا ثمرتي! لا تتكلّمي عن الموت ثانية أرجوك! نلت منه كفايتي في أعزّ أحبّائي، باللهّ عليك لا تأتي على ذكره مرّة أخرى.

- ***للصّلح مِدَّ يدَهُ***

نوري

لامسَ الشَّغافَ

بلسَمَ العتابَ

لذيذَ الكلمِ

سالْ

في بلّوْرِ روحي

واستراحْ

لو كنْتُ أدري

هكذا يجبُرُ

وهكذا يلُمُّ الجراحْ

لكنْتُ كلَّ لحظةٍ

خاصمْتُهُ

كي أغفو على

طيبِ الصّلاحْ...

أشتاقكَ يا أنت! أرسل إليّ الـ "عنجدّ" التي أحبّها هلّق هلّق هلّق.

يرسل إليها رسالة صوتيّة مدّتها ستّ ثوان فيها الـ "عنجدّ" التي تُشعلها، يتدلّل بها بكلّ شوقه، بكلّ عشقه، بكلّ شبقه

الخمسينيّ فتذوب لها، تسمعها، تعيدها، مرّة بعد مرّة بعد مرّة، ألف مرّة تعيدها، حتّى تنتشي بها!

– *ستُّ ثوانٍ من غنجِكَ*

لتروي ظَمَئي إليْكْ؟

رغيفٌ لأَلْفِ فمْ

قلمٌ لألْفِ يدْ

قرْطٌ لأَلْفِ أذنْ...

ستُّ ثوانٍ من صوْتِكَ

لأحْيا عليها وفيها

وبها ألفَ عُمْرْ...

(١٥)

توالت الصّباحات ناعسة، كسولة، متأخّرة، عقب سمر ليليٍّ ساخن، حارّ، مشتعل، ملتهب، طويل، طويل، طويل، يسلّم سواده لرئاسة النّور، عهدة ظلامه مقسّطة، لتستلم الضّياءات وظيفتها فتُتِمّها على امتداد الكائنات والعناصر. أمّا باقي ساعاتهما، فمتخمة غزلاً جائعًا لا يشبع، وعشقًا أثيريًّا لا يُدرَك، وأدبًا وضّاءً لا يخبو. كان لهيب الأزرق ما ينفكّ يتأجّج، يلفح قلبيهما، فينخطفان معًا، كلّ يومٍ، في حلم جائع جديد.

- صباح العشق يا مليكتي!
- صباحنا يا نوري.
- إلى أين تأخذينني اليوم يا ثمرتي؟
- أهاااا! نتشاقى؟

وتذيّلها بوجه غامز.

- نتشاقى يا شهيّة! هيْتَ لك!
- حسنًا، جهّز نفسك، وتعال معي.
- معك! معك! معك حتّى آخر العمر. خذيني يا ثمرتي! خذيني إليك!

– اِهدأ قليلًا يا شقيّ! ستفسد لذّة الرّحلة بتسرّعك هذا! اِهدأ يا صغيري، اِهدأ قليلًا. تعال...

كلماتها هذه كانت كافية لتضرم الشّهوة في ذرّاته، ليجنّ جنون خلاياه فتهرب منه إلى حروفها. كانت أقاصيصها القصيرة الشّقيّة تخطفه إلى عالمها، تمنحه جناحين من شغف، يطير بهما في فضاء اللّذة، يحلّق ويحلّق عاليًا فيه منتشيًا بسلاسة أسلوبها، بنبض أفكارها، بإبهار صُورها، برقّة إحساسها، بنكهة شقاوتها.

– اقرأ يا نوري.

نسير معًا في أسواق مصر الشّعبيّة، أسابقك، تلاحقني، أتدلّل عليك، أتحدّاك أن تلتقطني فتأخذ قبلةً عسلاً. أراوغك بين "الكشّات" والباعة، نتضاحك عاليًا عاليًا، ومَن حولنا يشْهدون الغبطة، ويُشاهدون العشق. أختبئ منك خلف باب خشبيٍّ سميك، يندهش صاحب المحلّ، تكبر عيناه ويهُمُّ بالكلام، فأشير إليه بإصبعي على فمي المغلق، أن يبقى ساكتًا كي لا يكشف مخبئي، وأنت هائم خلفي تنادي: " ثمر! ثمر! يا عمّ، ما شُفتش مُزّة لبنانيّة عدّت من هنا؟". وأنا والرّجل في الدّاخل نراقبك ضاحكَيْن بهمس. وعندما تجاوز مخبئي، أركض خلفك، ألكزك في خاصرتيك فتستدير وتلهفني، تسرقني، تشدّني إلى صدرك، وأنا أراوغ، وأحاول ضاحكة التّملّص من حديد قبضتيك، وأنت

تُحكم القبض بيديك، بصدرك، بوجهك، فأصرخ بغتة: "نور أنظر مَن هناك!!!" وتستدير نصف استدارة لتشفي فضولك، فأتفلّت منك، غارقة في ضحكي، وجهي لوجهك؛ أعود إلى الوراء، وأنت تسير نحوي، أتراجع خطوات حثيثة، فتتقدّم بالسّرعة نفسها، حتّى أصطدم بحائط غليظ، فتسرع وتثبّتني بيدي ورجليّ وتغرقني بقبلة هوليوديّة طويلة، تثير الرّائين وتُسيل شهواتهم. أضمّك بكُلّي، وأبتعد عن شفتيك وأهمس: بعشقك، فتجيبني ماسحًا أنفي – الذي تعشقه- بشفتيك: عنججججد؟؟؟ فتُجنّنني بردِّك، وأجنّنك بوابل من القبل أطبعها على ملامح وجهك، وبين القبلة والأخرى أقول: ولك دخيل الـ" عنججججد" تبعك!

أتوقّف أتأمّل قلادة فرعونيّة الشّكل، فيروزيّة اللّون، تسبقني عند بائع عصير وتصرخ: "عمري! نشرب حاجة؟" أومئ برأسي نزولاً، وأشير بسبّابتي أن اطلب واحدًا فقط. أُسرع نحوك، أقفز وأصير خلفك، أُغمِض بيديّ عينيك:

- أنا مين؟
- سيّدة الشّموس! فينوسي! معبودتي! وتُمسك بيديّ تقبّلهما، تستدير.
- قشّتان لو سمحت يا عمّ. Merci يا حلووو.

أتناول كوب العصير الكبير، المثلّج، الرّاشح ندى على عطش عينيك المفتوحتين على آخرهما، ترتشفانه قبل فمك، فتبلع بريقك عن ارتواء كاذب وظمإٍ تمّوزيٍّ حقيقيٍّ. أقرّب الكوب من ثغرك وأسأل:

- نور؟ بتحبّني؟
- بعشقك! وتهمّ بارتشافه، فأسارع إلى إبعاده، وأقترب من فمك بدلال وأهمس مقرّبة الكوب منك مجدّدًا:
- و؟؟
- بموت فيك! وتُقبِلُ على القشّة، فأبعدها مرّة أخرى، وأمرّر شفتيّ على شفتيك، مُدنية الكوب مرّة أخرى:
- و؟؟؟
- بعبدك يا ثمر! وقبل أن تلتقط القشّة بفمك، أُبعد الكوب متظاهرة بعدم الاقتناع قائلة:
- مش عارفة كده، مش حسّاها أوي. فتضيق ذرعًا بظمئك، وتجنّ من غنجي، وتفقدك مراوغتي عقلك، فتشدّني إلى رجولتك الصّارخة مُتحدّيًا، وتهمس في أُذني بشبق: مش حسّاها أوي، ما هيييك؟ عنججججد؟
- ولك ييييييي! وأُغرق وجنتيك وجبهتك وأنفك بقبل أمٍّ أخذ

دلع طفلها بِلُبِّها وأصرخ:

- ولك تقبرني الـ عنججججد!!! ولك دخيلو اللّبناني شو طيّب من تمّك!!!

ندلف من زقاق إلى آخر، وننتهي قرابة الغروب، أمام الصّفحة الزّرقاء، هناك، على امتداد الرّمال التي امتصّت برودة آخر النّهار، بينما احتفظت المياه بفتور بداياته وأواسطه. ننزع نعالنا، ندوس الإسفنج الرّمليّ الطّريّ، تسري القشعريرة عميقة في خلايانا المتفتّحة للحبّ والحياة، واخزة بأشواكها سطح بشرتينا، فتخرج الـ: "أححح" منّا معًا، قويّةً، لذيذة. تطوّق خصري، تشدّني، أميل برأسي المترنّح إثارة على كتفك، نسير ونسير مدى الشّاطئ، تغرق أرجلنا في الرّمل، فيسارع المدّ يغسلها، في انتظار غرقٍ جديد. نفترش صخرة مسطّحة، ملساء، ممتدّة، واسعة، تجلس أنت وتحتويني بين ذراعيك ورجليك، ظهري إليك، وعيوننا إلى البحر. تضمّني بشوق سنيّك الخمسين، تشدّ وتشدّ حتّى ينصهر حرمانك الأزليّ في أتوني الأبديّ. نصمت. يرتفع صوت المدّ شيئًا فشيئًا مع نعس النّور، وانخفاض ضوضاء الحياة. هنا، لا شيء سوى العشق، والبحر، ونحن. تهمس في أذني: بحبّك، بحبّك، بحبّك في تصاعد ينفجر عن "بعبدك" تكسّر المدى. أبتسم، ألتفت في نصف استدارة، ألثم شفتيك،

مرّة بعد مرّة، قبلات مستقطعة بـ: "بعشقك، بعشقك، بعشقك" نشهق عن تنهّدات غائرة مدى الشّوق. يبرد الجوّ أكثر، تضمّني أكثر، تدثّرني برجولتك صارخة، حارّة.

– ها؟؟؟ ما رأيك؟؟؟

متبوعة بوجه غامز.

– أللّه عليك يا ثمرتي! يا ملهمتي! يا أقوى كاتبة سيناريو رومانسي في العالم العربي! إي ده؟ أتعرفين يا ثمر؟ لو تكتبين قصصًا رومانسيّة قصيرة كهذه، فستكتسح الأسواق، وسيلتهمها المراهقون الشّبقون، ويتذوّقها الشّباب المكتشف، ويستأنس بها الكهول الخبراء. قصصك ستمتع القرّاء جميعهم، على اختلاف الشّرائح العمريّة، والمعرفيّة، والثّقافيّة. أسلوبك يا ثمر، غاية في الانسيابيّة، سيل ماء عذب يدغدغ الخلايا، ينعش القحل، يبعث الحياة في الجماد! أنت تحترفين الإشعال يا امرأة!!!

– أها، أنا أعشق هذا النّوع، أكتبه بكلّي، أعيش أدقّ تفاصيله خيالاً، وجسدًا، وروحًا، قبل سكبها على الورق. وأنا في حضرة البياض، أغلق عينيّ، أفتح حواسي، أطلق خيالي، أشغّل حدسي، فيدور الشّريط السّينمائيّ في رأسي، وأبدأ أترجم ما أراه حروفًا وكلمات أدفقها في البداية، دفق ماء

نهر في ذوبان ثلوج الأعالي في نيسان، ثمّ أعود إليها، عودة شمس حزيران، وقد استكانت، وهدأت، وصفت، أتلقّف وشاح مياهها أنمّقها، وأوشّيها وأحلّيها بخيوط ماس البيان، وذهب البديع، وفضيّ الإنشاء، ثمّ أخلعها على الصّفحة قوس قزح من زهر وندى وفراشات.

- ثمرتي! ما كرهتُ في حياتي تقويم الزّمن، كما كرهته وأنا في انتظار لقائك يا أنا! لمَ هذا التّعاقب لليالي الشّوق، ونهارات الافتقاد؟ ألا يمكن للعاشق أن يقوِّم التّقويم على حبّه، وعشقه، وهواه؟ لمَ لا يملك العشّاق أن يجعلوا ساعة القرب مليون دقيقة للغزل، والحبّ، والوله، وأن يجعلوا ساعة البعد دقيقتين: واحدة للشّوق وأخرى للوجد وكفى؟؟!! تبًّا لهذا الانتظار الذي يتآكل صبري، ويتركني في خواء جنوني!!! تبًّا لهذا الوقت الكسول، لساعات البعد المائعة، تسيل في دمائي خبيثة، لا ينفع فيها كيميائيّ استرجاع صُوَرٍ، ولا عمليّات أحاديث زرقاء!!!

- اهدأ يا نوري، خذ هذه التّصبيرة. (مع وجه غامز).

في غرفة الفندق، ترتّب ثيابك وتحضّر لوازم اليوم قائلاً:

- ماذا نفعل اليوم يا شمسي؟

وأنا أصفّ المايوهات على السّرير لأختار أحدها:

- اليوم شمسك ستستحمّ بأمّها؛ سنمضي اليوم على "البيسين" نستجمّ ونستحمّ.

- و...؟

- و... إذا لم يكتشف أمن المسبح أمرنا، سأشهقك تحت الماء.(مع وجه غامز)

تفقد صوابك، وتترك ما بين يديك وتركض نحوي، تشدّ أنوثتي الصّارخة دلالاً، إلى رجولتك التّائقة إليّ، في كلّ حين، في كلّ ظرف. أضحك ملء شقاوتي، فتقترب وتشرع تقبّل أنفي، قبلات مستقطعة بـ:

- مجـ (قبلة) نونة (قبلة) أنت (قبلة) أعـ (قبلة) شقك (قبلة) يا (قبلة) امرأة (قبلة)!!!

- سأختار الأسود، فأنت تحبّه، يثيرك، وأنا أريدك مشتعلاً، ثائرًا، مُثارًا!!!

تلثمني بقبلتك الهوليوديّة اللامتناهية تلك، تسحب تنهّداتي، وأعصابي، وبواقيّ:

- آآآه منكِ يا أنتِ!!!!

أنسلّ سمكة من بين يديك، أسحب المايوه، وأسرع صوب الحمّام، تهرع لالتقاطي، فأدخل، وأقفل الباب عليّ وأضحك قائلة بصوت عال:

– فأل سيّئ أن ترى معشوقتك بالمايوه، إلاّ على البيسين! سأفشي كلّ مفاتني الكامنة للجميع، لكلّ الرّجال، لكلّ النّساء، وستحملق بي العيون، وستشرهني، وستذوب أنت غيرة، وستتمنّى أن تتحوّل إلى خمار يلفّ تضاريسي ويخفيها عن ملتهميها. هل تخيّلت في حياتك يا أستاذ، يا وقور، يا مسيطر، أن تتمنّى يومًا التّحوّل إلى خمار؟؟؟

على حافّة المسبح أجلس، بكلّ خبرة الأربعين، أنزل قدميّ في الماء، أفرد ظهري، فينتئ نهداي منتصبين تحت ما لا يغطّي منهما إلّا الرّبع أو أقلّ، أميل بعنقي، أغنج عليك، أضحك، أصلح القطعة السّفليّة شبه الغائرة في شقّ مؤخّرتي. تهيم، تذوب، تسارع لتطوّقني عن العيون، وتقول بجدّيّتك المعروفة:

– قتلتني يا امرأة! نحن اتّفقنا على مايوه، مش شبه مايوه!!! والله لو رأيتك فوق، لما تركتك تنزلين!!!

وفي غمرة احتدام غيرتك، ونظراتك اللّائمة، أضحك، ألتصق بكلّك، أمرّر شفتيّ على شفتيك، وأقول بمنتهى الدّلع:

- عنججججججد؟؟؟ ولك ييي!! دخيييلو الغيران!!!

تتناثر أمامي شظايا عاشق، فأفرد كفّي على ظهرك، أغافلك، وأدفعك، فتسقط في الماء.

- يا مَنـْ... والله لَوَرّيكي!!

وتسارع إلى سحبي من قدميّ نحوك بكلتا يديك، فلا أقاوم بل أسقط أمامك، وأغطس وأنسحب سريعًا، تحت الماء، إلى الضّفة الأخرى من المسبح. تتلفّت في كلّ مكان، تبحث عن وجهي الأبيض بين الوجوه السّمراء، عن شعري القصير العصريّ بين الشّعور الطّويلة البليدة، فلا تجدني. أراك من هناك، فأعود إليك، من خلفك، أمدّ يدي، أقرصك فيه، تشهق، تجفل، أضحك، تضحك مُردِفًا:

- طاقّة والله طاقّة!!! بموت فيك يا مجنونة!!!

(١٦)

هكذا دأبا على التّقاصد والتّشاعر والتّناظر ليل نهار. كان جنوحها إليه جنونًا، لم تقدّر له عواقب، ولم تحترس فيه من فضيحة، وكأنّ ما تفعله حقّ مشروع من حقوقها، في أن تستمتع باهتمام أحدهم، وتشاركه أفكارها الاجتماعيّة، واهتماماتها الأدبيّة، وفي أن تتواصل روحاهما كتابة، وفي أن يعيشا الأبيض المستحيل ، في الأزرق الممكن. ما كان هاتفها يطلّقها ثانية واحدة: في الغرفة، في المطبخ، في الصّالة، في الحمّام! في كلّ مكان! كانت تتنفّس حروفه، تخشى أن تختنق خارج بحره الأزرق، تغرق فيه ومعه، تغوص على لؤلؤ غزله، تسبح في عوالم أفكاره الفضيّة، تراقص ذهب أسماك عشقه. قليلًا ما كانت تجمعهما الذّبذبات الحرّة، نادرًا ما تبادلا صوتيهما، كانا مكتفيين بالحروف، يشبعهما دسم السّطور الممتلئة حتّى آخرها، آهات شوق، تنهّدات جوى، أنفاس هيام لوصال قريب يتصبّران به. اتّصل بها ذات بعد ظهر، فأسرعت إلى الحمّام، وأقفلت بابه عليهما، كلّمته بهمس، أسرعت إلى الإقفال، وخرجت. لاح لها طيف وائل على بعد أمتار منها. تسارعت دقّات قلبها، أحسّت باحتمال أن يكون قد سمعها تحدّث آخر، ولكنّها لم تخف، لم

تهلع. هي نفسها استغربت ردّة فعلها الهادئة تجاه ما يمكن أن يكون قد فقه له زوجها. حافظت على هدوئها، شكلاً، ومضمونًا، وهربت من شكّ نظراته تتفرّس في مشيتها، وحركتها، ونظرتها، ولفتاتها.

– ثمر، أعطيني هاتفك لو سمحت. أنا بحاجة إليه في شيء.

أخخخخ! بدأ التّتر! وقريبًا جدًّا ستتسارع أحداث فيلم حياتها. كانت المرّة الأولى التي يطلب منها فيها أن تعطيه هاتفها. عرفت أنّه سمعها. أيقنت أنّه عرف بأمرها. ولكنّ هاتفها لن يؤكّد له شيئًا. فهي قد محت اسم المتّصل، ومحادثتهما على الواتس. وحتّى لو قلّب في قائمة الأرقام على الهاتف، فلن يحزر اسم الرّجل الذي كانت تكلّمه "همسًا"، لأنّ حياتها تضجّ بالرّجال من زملاء عمل، إلى زملاء دراسة، إلى جيران، إلى أصدقاء بعيدين أو مقرّبين. كيف له أن يحزر اسمه بين عشرات الأسماء؟ أراحت هذه الأفكار رعشة يديها، وتسارع نبض قلبها، وبدأت تفكّر في إجابات لأسئلته المحتملة.

– ثمر، تعالي لو سمحت إلى الغرفة، وأغلقي الباب خلفك.

انقبض قلبها، أخذت نفسًا عميقًا، جهّزت أسلحة حججها، واستعدّت للمعركة.

- نعم يا وائل.

كان واقفًا في الغرفة، مكتوف اليدين، عن غضب، يثبّت نظره في عينيها، يجتهد في إخفاء شرر في صوته وفي عينيه، لئلّا يتناهى كلامهما إلى مسامع الولدين في الغرفة الثّانية من بيتهما الصّغير، وهما اللّذان ما تشاجرا يومًا في مسألة، ولا اختلفا حول رأي. لطالما تميّز بيتهما بالهدوء، وآراؤهما بالحوار، واتّفاقاتهما بالمنطق.

- من كنت تكلّمين منذ قليل؟

استرجعت في ومضة من الزّمن الحاضر، مواجهتها الأولى مع والدها، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، يوم سمعها تكلّم صديقها في التّلفون، فاستدعاها ليقيم معها "حوارًا" كما سمّاه هو، ولكنّه كان أقرب إلى المحاضرة، القاسية، المخيفة، ذات الطّرف الواحد، والرّأي الواحد، المحاضرة الأولى، والأخيرة بينهما، حاول والدها فيها أن يكسب قربها وصداقتها ليرافقها في رحلة مراهقتها الطّويلة، لكنّه للأسف، فقدها إلى الأبد، وبدأت رحلة طويلة، مريرة، من العلاقات السريّة، والتّسلّل النّهاري واللّيليّ، والكذب المستمرّ، حتّى احترفت فنّ إقناع الآخر بكذبها وهي تنظر في عينيه.

- صديقة.

- بل صديق يا ثمر، ما سمعته من الجوّال الذي بلغ مستوى صوت المتّصِل فيه أقصاه، كان صوت رجل، وليس صوت امرأة.

- طيّب، صديق.

- إذا كان مجرّد صديق عاديٍّ يا ثمر، فلِمَ تتسلّلين فجأة عند اتّصاله بك لتكلّميه من الحمّام؟ أتعتقدين أنّني غافل عن تغيّر تصرّفاتك في الآونة الأخيرة؟ وعن رسائل الواتس التي لا تهدأ ولا تكلّ؟ وعن هاتفك الذي تبقينه على خصرك كيفما تنقّلت؟ عن اصطحابك إيّاه إلى الحمّام وبقائك نصف ساعة فيه أو أكثر؟ عن جلوسك معي نشاهد التّلفاز، عين عليه، والأخرى على الهاتف؟ عن وجودك معي بالحسّ والمادّة، وغيابك العقليّ والنّفسيّ عنّي؟ عن انخطافك الدّائم في المحمول حتّى عندما نكون على المائدة، أو بين الأصدقاء؟ أنا وائل يا ثمر، أعرفك أكثر من نفسك، ترعرعتِ علي يديّ، معي، وفي بيتي، أعرف نفسَكِ، لفتاتك، أدقّ تصرّفاتك، وقد تغيّرت كثيرًا يا ثمر. حاولت كثيرًا أن أهدّئ استغرابي، أن أكذّب أفكاري، أن أطرد أوهامي، أن أبدّد شكوكي، فأنت ثمر، طفلتي البريئة التي أحبّها وتحبّني، لم يخطر في بالي أن

تكون لك علاقة بآخر، ولا لاح لي سبب يدفعك إلى ذلك يا ثمر. تكلّمي! أجيبي! لمَ؟ لمَ يا ثمر؟

كانت تنظر في عينيه، وعلى شفتيها شبه ابتسامة، وفي قلبها شعور لذيذ بالسّيطرة، والامتلاك، والقوّة. لم تخف منه كما خافت من أبيها يومها، ولم ترتعب من نظراته وحدّة صوته، كما ارتعبت من رهبة صوت أبيها، مع أنّ خطأها في حقّ زوجها أكبر بكثير، وتبعاته أعظم بكثير.

- لأنّني كبرت يا وائل، ولم أعد طفلة.

- لم أفهم، فسّري لي.

- حسنًا دعني أقلها بهذا الشّكل: لقد أقمت علاقة مع صديق من الوسط الأدبيّ، لأنّني لم أعد طفلة تكتفي بالقليل، بل كبرت اهتماماتي، واختلفت، وتنوّعت، وبتّ بحاجة إلى رفيق يشاطرني إيّاها، ويشاركني فيها حتّى أكبر وأطير.

- صديق من الوسط الأدبي؟ اهتمامات جديدة؟ لمَ لا؟ إذا كانت العلاقة التي تجمعك به أدبيّة، علميّة، عمليّة، رسميّة، فيها تبادل للأفكار والآراء والشّعر وغيرها من أشيائكم التي لا أفهم فيها، فلمَ التّخفّي والتّستّر؟ لمَ الهمس في الحمّام يا ثمر؟

- أها! إنّ أشياءنا التي ليس لك فيها هي نصف المشكلة، والتّستّر في الحمّام هو النّصف الآخر.
- يعني؟
- يعني إنّ ما بيني وبين هذا الصّديق، صار يتخطّى النّقاش العمليّ الأدبيّ، وبلغ مرحلة الإعجاب يا وائل. هو معجب بي، شكلاً ومضمونًا.
- معجب بك؟! حلو كتير! وتقولينها كأنّك تتمنّين لي ليلة سعيدة؟

أدارت وجهها عن شرر عينيه ورغبة يديه في اقتناص عنقها الوقح ليدقّه بيديه الاثنتين، ولكنّه شهق شعلة حنقه قبل أن تلتهم فتيل الانفجار، وقال:

- اتركيني الآن يا ثمر. دعيني استوعب ما تقولينه أنت بدم بارد، بينما أغلي أنا من الغضب قد ينصبّ عليك وعلى الأولاد بأبشع الأشكال وأمسخها.

خرج من الغرفة واتّجه إلى الجلسة الصّيفيّة خارج البيت، استلّ علبة سجائره، شهق السّيجارة الأولى، فالثّانية، فالثّالثة، وهو يتأمّل في الفراغ. كانت تراقبه من نافذة غرفتها المطلّة عليه، وتتحضّر للفصل الثّاني من جلسة التّحقيق. ضاقت ذرعًا

بأصوات أفكارها الصّارخة داخل رأسها، وخرجت إليه.

- وائل، دعنا نتحدّث في المسألة كشخصين ناضجين. أتريد أن تعرف من هو؟ إنّه صديق من الوسط الأدبي، واسمه "سالم عاصي"، بإمكانك أن تبحث عنه على الفايس. قلت لك إنّنا نتبادل الاهتمامات الأدبيّة ونتناقش في أمور قلت إنّها "تخصّنا"، فلَم تعترض على الموضوع. ولكنّ سبب الهمس في الحمّام، وهذا الانخطاف الدّائم على الواتس في الهاتف، فهو إعجابه الشّديد بي، وتطوّر هذا الإعجاب إلى غزل وقصائد.

- هل رأيته يا ثمر؟ هل تقابلتما؟

- لا، لم أره، ولكنّني أتابع صوره على الفايس، أمّا عنه هو، فيحتفظ بمعظم صوري التي على صفحتي. صحيح هو شغل جزءًا مهمًّا من وقتي، وتفكري، ولكن كلّ هذا لا يتعدّى مجال ملء الفراغ، والإحساس بقيمتي كأنثى في عيني أديب وشاعر، والتّمتّع بقصائد الوصف، وكلام الغزل الذي لم أسمع مثله في حياتي، وقد حلمت بشبيهه منذ مراهقتي.

- لمَ؟ لمَ يا ثمر؟

- أهاا! أمّا عن "لِمَ"، فعندي لك الكثير يا وائل. دعني

أبُح لك بسرٍّ يا عزيزي، أنا لم أجنح إلى مطلق مارّ طريق، قال فيّ كلمتين معسولتين، أنا جُذبت إلى شخص يشاطرني الأفكار، شخص يقرأني! أنت يا زوجي الحبيب، يا أقرب النّاس إليّ، لا تعرفني! أنا أسكن في كتاباتي، وتتجلّى أفكاري بين سطوري، وأنت يا وائل، لم تقرأني يومًا! ما هي آخر قصيدة كتبتها؟ ما موضوع قصّتي القصيرة الأخيرة؟ طيّب، دع الأدب جانبًا، هو لا يستهويك، كما لا تستهويني كرة القدم التي تعشقها. كلّ هذا لا يهمّ.

- وما هو المهمّ إذاً؟

- المهمّ أنّني انجذبت إلى شخص "رآني".

فتح عينيه على اتّساعهما في استغراب.

- نعم، يا وائل، هو يراني، أمّا أنت فلا. هو يتتبّع صوري، ويهيم في تفاصيلي، من بُعد، بالحروف، أمّا أنت فمَعي، تحت سقف واحد، ولا تراني! قل لي، متى كانت آخر مرّة عبّرت فيها عن إعجابك بإطلالتي؟ متى كانت آخر مرّة قلت لي فيها إنّني جميلة؟ إنّني رائعة، إنّني فاتنة، إنّ لي جسد يذيب الحجر؟ متى كانت آخر مرّة عبّرت فيها عن إعجابك بأحد فساتيني المكشوفة على الصّدر، أو الملتصقة بالمؤخّرة؟

أتعرف أنّ برودك هذا تجاه أنوثتي كان يُمْعن في قتلها يومًا بعد يوم؟ أتدري أنّ جليدك في وجه اشتعالي، كان يقسّيني عامًا بعد عام؟ صحيح أنّنا نتّفق في كلّ شيء، حتّى في السّرير، ولكنّ الشّغف الذي كان بيننا وأنا صغيرة تكتشف الحياة، قد خبا، أطفأه إهمالك وانشغالك عنّي، واعتبارك حبّي لك "تحصيلًا حاصلًا"، حتّى توقّفت عن أيّة محاولة، وتغاضيت عن أيّ مجهود، واستسلمت للرّوتين. أتدري كم من مناسبة انتظرتُ فيها أن أرى في عينيك بريق إثارة، بصيص شغف، ولم أرَ إلّا الفراغ؟ لمَ؟ لهذه الأسباب يا وائل، انجرفت إلى من ملأ فيّ فراغًا غائرًا في العمق، ما زال يحفر في وجعي منذ عشرين سنة، نصف عمري يا وائل! لا يا عزيزي، أنا لم أنجرف إلى كلامه، واهتمامه بهذه البساطة، أنا قاومت، وطالبتك بهذا الاهتمام مرارًا. وتذلّلت لك بشكل مباشر، وغير مباشر، لتمنحني اهتمامك، وغزلك، وانبهارك، وفتنتك، ولكنّك خيّبت أملي مرارًا، حتّى كفرت بالتّسوّل ورميت كلّ أدواته. هو يقول ما أحبّ أن أسمعه، وأنا امرأة من كلام يا وائل، عشرون سنة ولم تفهم هذه الحقيقة! عشرون سنة، وأنت تهملني، وتسكت عن كلّ شيء حتّى بتّ أشكّ في أنّني أعجبتك يومًا، أو أحببت شكلي يومًا، أم

أنّك رضيت بي لأنّني طيّبة، و"ابنة ناس"، ومتعلّمة، وصغيرة تربّيها في بيتك، على هواك. لم أعد أعرف شيئًا يا وائل. ما أعرفه هو أنّني كبرت، ولم أعد ثمر التي تعرفها. أنا مستمتعة بغرابة علاقتي به، وبُعدها، وخصوصيّتها، ولا أطمح في أكثر من ذلك. صدّق أو لا تصدّق، فأنا لا يجمعني به، ولا يملأني فيه، إلا فراغي فيك. علاقتي به روحيّة، عذريّة، لا جنوح جنسيًّا فيها، أو رغبة جسديّة. أنا أكتفي منه، بما أحتاجه منك ولم أجده عندك لا أكثر ولا أقلّ. لا أعرف كيف أفسّر مشاعري تجاهه، أمّا عن مشاعره تجاهي فأعتقد أنّها في مصاف الإعجاب الكبير الدّائم التّطوّر.

واحتدّت نبرته:

- دائم التّطوّر؟ أي أنّني لو لم أعرف بأمر هذه العلاقة، لكنت رأيته، وقابلته، و... الله أعلم أين وصلت بكما الأمور. لو لم أكشف سبب هذا التّغيّر المفاجئ في تصرّفاتك في الفترة الأخيرة لكنتِ قابلته.

وشارف على الصّراخ:

- لكنتِ نمت معه يا ثمر! لأنّه "يراك"، نعم "يراك" ثمرة شهيّة، قطعة حلوى يسعى للتّلذّذ بها، هذا كلّ ما أنت بالنّسبة إليه.

أحقًّا تعتقدين أنّ أمرك يهمّه؟ أحقًّا يا معلّمة، يا مربّية، يا مخرّجة الأجيال، يا أمًّا، يا واعية، يا مثقّفة، يا خرّيجة الجامعة تحسبين أنّك أكثر من مجرّد جسد طيّب في الفراش؟ أفيقي من مراهقتك المتأخّرة يا ثمر! أفيقي من أحلامك الواهمة يا امرأة! لقد أحسن هذا الغريب جذبك إليه بحنكة مَنْ يحترف الإيقاع بالنّساء من بُعد. إنّها موضة هذه الأيّام يا ثمر! هكذا اخترب بيت "عماد" منذ سنتين، و"فادي" قبله بسنة واحدة. هكذا جُرّت قدم كلّ من المرأتين إلى الوهم والمجهول بكلام معسول يصيب الوتر الحسّاس من كلّ منهما، يدركهما في نقصهما، فتستسلمان خاضعتين، وتبدأ العلاقة مع زوج كلّ منهما تتضعضع، والآخر يعدها بالزّواج، والحياة الحلوة إذا ما تركت زوجها، فتقع الكارثة ويحدث الطّلاق ويخترب البيت. لا لن أسمح لبيتي أن يخترب بهذه السّهولة يا ثمر! لن أسمح لسذاجتك وطيبتك حدّ الغباء، أن تدمّر كلّ ما بنيناه. أين كان عقلك وأنت تكلّمين مجهولًا غريبًا لا تعرفينه؟ ألم تخشي أن يسجّل مكالماتكما ويصوّر محادثاتكما المكتوبة ليبتزّك بها؟ ثمر! آآه والصّور!!! لا تقولي إنّك أرسلتِ صورًا خاصّة يا ثمر! بربّك لا تقولي إنّ الأمر وصل بكِ إلى هذا الحدّ من الغباء والجنون! ثمر! اسمعيني جيّدًا! ستنهين كلّ

علاقة لك به وإلّا... صدّقيني أنت لا تُريدين أن تعرفي وإلّا ماذا، ولن تتحمّلي عواقبه!

زأر بوعيده هذا وهو ينظر إليها أسدًا يربّي لبوءته.

جفلت، صمتت، فقد رأت للمرّة الأولى منذ عشرين سنة وجهه الآخر. هي لا تملك ردًّا ولا احتجاجًا على ما قاله. وماذا تقول؟ أتجادله لتقنعه بأنّها تثق بصديقها ثقة عمياء سلّمته فيها أخبار بيتها وحياتها وعملها، وأنّ أيًّا من مخاوفه تلك لا يراودها وأنّها تنام ملء جفونها عن شواردها؟ لم يعد يهمّها ما يفكّر فيه، وأنّه يراها، مراهقة أربعينيّة متسرّعة وساذجة، فهي، بنظر ذاتها، ما عادت تهمّه، وربّما لم تهمّه يومًا، أو أنّه لم يرها، في حياته، أكثر من زوجة لا أكثر. كانت تشعر بأنّها لم تعد امرأته، بأنّها ربّما لم تكن كذلك يومًا، أمّا "صديقها" فلقّبها بـ: "أنثاي، شمسي، امرأتي، إلهتي، ربّتي..." . أطرقت، وخرجت، وتركَتْه رهن أخماسه وأسداسه وأسباعه وأعشاره، يتضارب بها وأفكاره، وهواجسه الجديدة، تتصارع وحياته السّابقة معها، وأفكارها الماضية، أيّام كانت طفلته، وكان والدها، وحبيبها، ورجُلها الوحيد. اليوم صار يشاركه فيها آخر. اليوم صار لزوجته "صديق"، عشيق!!! يا أللهّ! ماذا يجري له؟؟؟ كيف؟؟؟ ثمر؟؟!! ثمر تفعل به هذا؟؟؟ بعد كلّ هذا العمر لهما معًا؟؟؟ بعد كلّ ما احتملاه، وبنياه؟ بعد

العشرة الطّويلة والثّقة العمياء؟ بعد كلّ حبّه وتضحياته؟ بعد كلّ عبادته لها؟ أهكذا تكافئه؟ ثمّ، ما هذه الحجج الواهية التي قدّمتها؟؟؟ ما هذه الأفكار السّخيفة التي تدور في رأسها؟ أمن أجل حفنة من الكلام الجميل، تبيع زوجها وحبيبها؟ أبلغت بها السّخافة وحدّة "جهلة الأربعين" درجة أن تقف في وجهه وتقول له بكلّ صراحة، ومن دون خجل أو خوف: لي صديق، يتغزّل بي، وأعجبه، ونتبادل الآراء والاهتمامات؟ أهذه هي طفلته التي ترعرعت بين ذراعيه، وتحت جناحيه؟ أهذه هي حبيبته التي منحها ثقته العمياء، وتركها تخرج متى تشاء، وتعاشر من تشاء، وأطلقها حرّة تحلّق بين النّجوم، عارية بين الثّعالب فتعود إليه طاهرة، لم يمسّها كلام، لأنّها امرأته وحده، ولا ترى سواه، لأنّها "أخت رجال" وليست "نعنوعة" أو "فرفورة" يضحك عليها رجل بكلامه؟ أهكذا تخطئ ثمر؟ طيّب ماذا بعد؟ ماذا عن رجولته؟ ماذا عن حميميّة علاقتهما؟ هو يحبّها حتّى النّخاع، ولكن؟ طيّب، كيف يكملان الطّريق وفي عقلها، وفي قلبها آخر؟ كيف ينامان في سرير واحد ونصفها مع غيره؟ أكانت تفكّر به وهُما معًا في السّرير؟ أكانت تسترجع كلماته فتثيرها وتنام معه بالجسد وقلبها وفكرها مع عشيقها؟ طيّب، لو لم يكتشف علاقتها به، أكان سيصبح "أبو قرون"؟ لا لا مستحيل! كيف يفكّر بهذه

الطّريقة؟؟!! هذه ثمر، رفيقة الدّرب، السّند الأقوى، هي التي ما تركته أيّام القلّة والعوز، هي التي ساندته في محنته الأشدّ، بقيت معه، جنبًا إلى جنب، ضحّت بأجمل سنين عمرها في المهنة القاتلة كما تسمّيها هي، استدانت من إدارة المدرسة مبالغ كبيرة سدّدتها من كرامتها، لتعينه على سداد ديون تجارته الخاسرة. لم تمُنّ عليه يومًا باهتمام، ولم تضنّ عليه يومًا بحنان، لم تعيّره يومًا بتواضع مهنته، أو محدوديّة تعليمه، أو انعدام شهاداته، بل ربّتت على قوّة شخصيّته، وأثنت على كفاءته في مجال التّجارة، وأكّدت له مرارًا أنّه ملك في مهنته، وفي حياتها، وأنّها تحبّه هو، بقلبه الكبير، بحنانه الكثير، بسعة احتماله، بطول أناته، بطيب نواياه، بجمال روحه، بتحرّر أفكاره: "ما نفع الشّهادات العالية، وما نفع المال الوفير، إذا ما كان سيذلّني زوجي به، أو يقتنص الفرص ليذكّرني بأنّه اشتراني بماله؟!! اللّعنة على الشّهادات والمال التي ستفقدني كرامتي!!!".

هذه ثمر الجميلة، المُحِبّة، هي التي ما قصّرت يومًا تجاه رجولته، بل لبّت احتياجاته النّفسيّة والجسديّة. ثمر التي أغنته عن نساء العالم كلّه، اختارها بعد سلسلة لامتناهية من العلاقات المتنوّعة، ورست سفينته في مينائها الآمن، الطّاهر، الواعي، الصّالح. هي تعجبه، تعجبه جدًّا. يعترف بينه وبين نفسه دائمًا أنّه

يغار عليها من ظلّها، وأنّها تثيره بحركاتها، وضحكتها، وهمسها، بانحناءات جسدها، ونتوء صدرها، واستدارة وارتفاع مؤخّرتها! هذه ثمر يا ألله! حبيبته التي أَحَبّها، عشقها، وعبدها، وما زال... ولكن، ماذا عنها هي؟ أما زالت تحبّه؟ أتعلّق فؤادها بهذا "الصّديق"؟ أما زالت له أم صارت لمنافسه؟ وإذا سامح هفوتها هذه على عظمتها - فخيانة العقل عنده بألف خيانة جسد- فهل هي مستعدّة لترك صديقها، وقطع أيّة علاقة لها به؟ أيتركها نهائيًا من دون فرصة أخرى، إذ لا نفع من استرجاع قلب أنثى بعد أن صار مع آخر؟ وماذا عن الأولاد؟ والأهل؟ والأقارب؟ ماذا عن البيت الذي بنياه بكسر قسوة العمر، واقتلاع نير السّنين؟ أيدوس على قلبه ويرحل؟ أم يمنح هذا القلب، وهذا البيت، وهذا الحبّ فرصة أخرى؟ سيخيّرها بينه وبين عشيقها، فهو لم يعتد على إرغام أحد على شيء، فكيف يرغمها هي بالذّات على أن تبقى معه وتحبّه؟ من يدري؟ ربّما يعود إلى قلبها إذا ما لبّى احتياجاتها، وأسمَعَها ما تحبّه، وأولاها اهتمامه، وأراها حبّه؟ هو يعلم تمامًا أنّه قصّر تجاهها اهتمامًا قولاً وفعلاً، ولكنّ حبّه تجاهها لم يقلّ يومًا، ما زال يعبدها، ما زالت تختصر وجوده وحياته وطموحاته، يحلم أن يمضي بجانبها ما تبقّى من أيّام حياتهما. يحلف إذا ما بقيت معه، إذا ما اختارته هو، أن يُسمعها

الغزل حتّى تملّه، وأن يُغرقها اهتمامًا وحبًّا، وأن يُقيم التّوازن بين انشغالاته العديدة وبينها. "يا ألله! ما أصعب أن تُطلق حبيبتك لعشيقها، وتراهن على اختيارها لك!". فجأة استلّ هاتفه، ودخل إلى صفحة من يظنّه منافسه، بينما هو مجرّد صديق لها على الفايس، ولا تجمعهما سوى بعض التّعليقات الرّسمية على صورة، أو مشاركة فيديو، أو قصيدة، أو قصّة. شابّ، في مثل سنّه، رياضيّ، وسيم، حسنًا، ذوقها في منافسه كذوقها فيه، يبدو أنّها أعجبت به لأنّه شبيهه، كما تُعجب المراهقة بشبيه والدها. "سالم عاصي": أمضى ساعات طوال يبحث عن خيط يربط بينهما، يكشف عن طبيعة هذه العلاقة المشبوهة، فلم يقع على أيّ دليل. يبدو أنّها تحترف الإخفاء، أنّ جريمتها كاملة، أنّها لم تترك خلفها أيّ أثر! كفر بوسائل التّواصل الاجتماعي عن بكرة أبيها، وقرّر أن يحاورها، أن يخيّرها، وينتظر. كانت السّاعات الأطول في حياته!

(١٧)

رنّ جرس رسالة واتساب جديدة، ولكن من زوجها:

ثمر، أكتب إليك للمرّة الأولى في حياتي، لأنّني لن أقوى على الصّمود أمام جبروت دموعك، ولأنّني أعلم أنّه لا يمكنني أن أُجاري مستواك اللّغوي والأدبي، لذا سأترك لقلبي الكلام فلا تحاسبيني على رداءة الأسلوب. أنا "وائل"، زوجك الذي كان يومًا حبيبك، أمّا الآن وبعد أن سحرك عشيقك الأدبيّ، واحتلّ قلبك الصّغير، صرت أشعر بأنّي لم أعد أشغل منه سوى مساحة لا تكفي لكلينا. أتتذكّرين يوم قلت لي: أنت يا وائل، تحبّ بكرامة؟ يومها لم أفهم ماذا كنت تقصدين. لكنّني اليوم، أكثر من أيّ يوم آخر، فهمت قصدك يا ثمر، وسأعمل به. اليوم أتركك لقلبك، لذكرياتنا، لعمرنا، أتركك وأبتعد لكي تُحسني اتّخاذ القرار الذي سيحدّد مصير ما تبقّى من حياتنا معًا. لطالما كانت حياتك معي اختيارات وحريّات وانطلاقات، لم أرغمك على شيء البتّة، ولن أرغمك على أن تحبّيني، أو أن تبقي معي. سأرحل يا ثمر، سأغيب ليومين، كي لا يكون لوجودي معك في البيت نفسه تأثير على قرارك. فكّري يا ثمر، وقرّري، إمّا أن تقطعي كلّ علاقة به، ونمزّق معًا هذه الصّفحة المؤلمة من

كتاب حياتنا، وأمضي باقي عمري أعبدك قولاً وفعلاً، لأعوّض ما فاتني منك، أو نبقى تحت سقف واحد زوجين محترمين، ناضجين، واعيين، أمام الأولاد والأهل والأقارب، ويعيش كلّ منّا حياته الخاصّة خارجه. لا تحاولي الاتّصال بي في اليومين الآتيين لأنّني سأحظرك من قائمة الاتّصالات. وقولي للأولاد إنّني مشغول في مكان بعيد جدًّا عن البيت، لذا سأضطرّ إلى المبيت يومين هناك. تركت لك ما يكفي من المال لكي لا تحتاجي شيئًا في غيابي...

لم تقوَ على إنهاء الرّسالة التي حجب ضباب دموعها معظم حروفها. كانت حرقة غريبة تعتصر قلبها، ومطرقة العذاب تنخر في صخر ضميرها. "أو نبقى تحت سقف واحد زوجين محترمين، ناضجين، واعيين، أمام الأولاد والأهل والأقارب، ويعيش كلّ منّا حياته الخاصّة خارجه"، كلام لم تعقله، لم تتصوّره، لم تتقبّله. كيف؟ كيف يصير وائلها لغيرها؟ كان حبّها له أقوى من إمكانيّة تخيّله مع غيرها، أو في بيت آخر، أو بعيدًا عنها. هول صدمتها في واقعها، أنساها، إلى حين، نور والسّفر والعشق والحلم الكبير بكلّ تبعاته... كانت أنياب عذاب الضّمير تنهش قلبها وعقلها. تمنّت لو أنّها لم تعرف نور، ولم تسقط رهينة حروفه الزّرقاء، وغزله القاتل، وعشقه الأثيري،

تمنّت لو بقيت طفلة أربعينيّة مغمضة العينين عن شهقة انبهارها بشعاع عشقه. تمنّت لو بقيت الزّوجة القانعة بروتين الاستقرار، الغافلة عن جنون المغامرة. تمنّت لو بقيت شجرة متجذّرة في أرض التّعوّد والتّملّك والتّجمّد، ولم تستحل نسرًا ذهبيًّا يشرّع جناحيه على الرّياح الأربع. تمنّت لو بقيت معلّمة تُطحن راضية بين رحى الحياة، ولم تَصِر أديبة منتفضة، تضع عينيها في عيني وحش الدّنيا، وتزأر عاليًا فتُسْكِت شرّه، وتطفئ شرره. تمنّت لو لم تنزلق عن صخرة أمان حياتها في بحر لذّة غموض كلامه. تمنّت لو لو لو...

احتلّ غياب وائل، كلّ حضورها في اليومين الأخيرين. شعور غائر بالنّدم يغشاه حزن عميق عنكبوتيّ يغزل خيوطه الشّوكية حول فؤادها تمتدّ إلى منافذ ذكرياتها معه يومًا بيوم، سنة بسنة. بدأت تشتاقه كما لم تشتقه منذ أعوام. شوق مهيب، أقرب إلى ثقل الهمّ منه إلى خفّة شوق العشق. شوق مسنّن يلكزها في عمق المسام، يُدمي عمرها الماضي وساعاتها الحاضرة، من دونه. لم تقدر، رغم سعة مروحة خيالها، وانفرادها في عزلة غرفتها أن ترسم ملامح حياتها بدونه. تراودها صورته، ولحظاتهما معًا، فتتفلّت الدّموع المتشبّثة برموش الوهن، وتبلّل نحر ندمها. شلّها غيابه، تجمّدت أفكارها عند لحظة قراءتها رسالته الأخيرة. لم

تقوَ على قراءتها ثانية. مرور حروفها القاسية في ذاكرة قلبها كان كافيًا ليميتها بكاء. لا، لا، لا يمكن أن يكون لغيرها، لا يمكن أن ينتهي كلّ شيء بهذه البساطة، لا يمكن أن تكون له حياة لا تكون هي محورها، وشمسها، ونبضها. لن تفقد أمانها، وأولادها، وزوجها من أجل عشق أزرق، لا بياض له. لن تفقد واقعها الحقيقيّ من أجل حلم واهٍ. ستترك نور، ستعلن الحرب على قلبها العاشق، ستسلّط عليه فكرها الواعي، لن تسمح لضعفها فيه أن يغلبها فيخسّرها كلّ شيء.

اتّصلت بشركة الطّيران وألغت حجز السّفرة إياها، ثمّ أرسلت إلى وائل رسالة من هاتف ابنها لأنّه بقي على تواصل مع الأولاد:

- ***ما أحسَّ قلبي قبلَ جرحكَ بالخطرْ،***

وأعلمُ يا كلّي خطيئتي في حبّكَ

لا تُغتَفَرْ،

أغمضْ عينيكَ عن حماقتي

وافتكِرْ

جنونَنا، وحبَّنا، وعمرَنا معًا...

معًا يا أنا نتخطّى الألمْ...

اخترتُك وأختارُك وسأختارُك دومًا...

عدْ إليَّ! أنتظرُكْ...

ثمر

عاد وائل غافرًا جرحها، واعترف بتقصيره تجاهها، وبإعجابه بكلّ تفاصيلها، وباعتكافه السّابق عن الكلام في الموضوع حفاظًا على توازن العلاقة بينهما، ليبقيا على توازٍ، لكي لا تستغلّ ضعفه في حبّها فتقوى عليه وتستغلّه على غرار ما فعلت به حبيبته الأولى قبل أن تتركه من أجل المال، وخطيبته بعدها قبل أن تخونه للسّبب نفسه، فيجاهد من جديد، شهورًا، ليقتلع خنجر الخيانة العظمى من لحم كرامة حبّه، ويقاسي في رتق أخاديد الخيبة والقهر والألم والدّموع بخيط جديد يستلّه من لهب فتيات الحانات، وعهر نساء الملاهي؛ كلّ هذا جعله يقنّن في جرعات التّعبير عن المشاعر، حتّى وصل حدّ التّنشيف!

وعدها بمزيد من لفتات الاهتمام، ومزيد من كلام الحبّ، ومزيد من إشارات الغزل، ووعدته بقطع علاقتها بسالم نهائيًّا. وعادت عجلة الحياة تدور. لم يكن يعرف أنّ وعدها الواهي لا أصل له، وأنّه لا لوجود لسالم عاصي هذا من الأصل. وأنّ أدنى شيء لم يتغيّر في حياة كلّ منهما، ما عدا محاولاته المستميتة في

استرجاع قلبها، وعودته إليه، ولكن هيهات! أين بساطة كلامه من شاعريّة نورها؟ وأين حبّها له من شغفها بنورها؟ وأين حياتها معه من انخطافها في نورها؟ وأين؟ وأين؟

(١٨)

- صباح الخير يا نور.
- عشقي! صباحك يا شمسي! ماذا هناك يا ثمرتي، أخفتني عليك! هاتفك مغلق منذ أكثر من يومين! ماذا هناك؟ أجيبي!
- نور، اسمعني جيّدًا أرجوك.
- قولي يا عمري، ما الأمر.
- وائل سمعنا منذ يومين.
- كيف؟ ماذا سمع؟
- لا تحمل همًّا! لم يسمع حديثنا، بل تناهى إلى أذنيه صوت رجل، وأنا في الحمام، وأحدّثه بالهمس، فشكّ بعلاقتي بأحدهم، وأنا لم أنكر ذلك. واجهته بالحقيقة، وبسبب إقامة علاقة زرقاء مع صديق من الوسط الأدبي، لأنّني امرأة مهملة الأنوثة، وجدَت عنده الاهتمام، لأنّه يشاركني الاهتمامات، ويبادلني النّقاشات، ولكنّني أعجبه، لذا، جنح كلامنا في بعض الأحيان إلى أماكن معيّنة. وأعطيته طبعًا، اسمًا وهميًّا لصديق لبنانيّ على الفايس لا تربطني به سوى رسميّات التّعليقات، ووعدته بأن أقطع كلّ علاقة لي به.

- لحظة، لحظة! ولنفترض أنّه حاول الاتّصال بالرجل وفضح الأمر؟

- لا يا نور، لن يفعل، اطمئنّ! كرامة وائل فوق كلّ شيء، لن يتصاغر لغريمه ويحادثه، والمنطق يفترض أنّ سلطة زوجي هي عليّ لا على عشيقي، وماذا سيقول له اذا ما اتّصل به، وليس في يده دليل واحد لأيّة محادثة بيننا؟

- وماذا بعد؟

- تركني ليومين، وخيّرني بينك وبينه، بين أن أتركك نهائيًّا ونطوي هذه الصّفحة الأليمة من حياتنا، وبين أن نعيش معًا غرباء تحت سقف واحد، هو له حياته، وأنا لي حياتي.

- وهل عاد؟

- نعم عاد.

- أي أنّك اتّخذت قرارًا.

- نعم قرّرت.

- وماذا قرّرت يا ثمر؟

- أنا أحبّ وائل يا نور، أحبّه، لا بجنون عاشقة، ولكن بعقل حبيبة، بوفاء صديقة، بضمير زوجة، بحنان أمّ. أحبّه يا

نور، أكثر ممّا كنت أتصوّر. حبّي له حصن فولاذيّ فشلت محاولات سنوات الشّقاء والإهمال في هدمه. حتّى عشقك، حتّى جنوني فيك يا نور، سقطا أمام مهابة حبّه. لن أكمل الطريق يا نور. لن أحتمل عذاب الضّمير فيه وفيك. لن أحتمل انفصامي بينكما: هو أحبّه، وأنت أعشقك. أنا على شفير الانهيار النّفسيّ والجسديّ الشّاملين يا نور.

- وأنا؟ ووعدك؟ والسّفر؟ واللّقاء المنتظر؟ وحياتي التي اختصرتها فيك، في لقائنا، في عشقنا؟ وحلمي الأكبر فيك يا ثمر؟ أهكذا تبترينه بنصل كلامك؟ ألم تقولي إنّي ابنك؟ وإنّك أمّي؟ وإنّك لا تتركين أولادك؟ كيف تتركينني يا ثمر؟

- بالله عليك يا نور ارحمني! أنا أتمزّق بينكما! لا تصعّب الأمر عليّ. عش حياتك وانسني، جد لنفسك صديقة جميلة، عاشرها، وتمتّعا بحياتكما. انتفض على واقعك يا نور، طلّق زوجتك، وعش حياتك حرًّا مع امرأة رقيقة، تقدّر شغفك، وتعبد موهبتك، تحبّك، وتحبّها. لا تدفن باقي أيّامك مع تلك القاسية القلب، المتحجّرة الأفكار، الفاقدة الأنوثة. ثر يا نور! ثر وعش! وسأحاول أن أعيش بعدك، سأحاول أن أنساك. يقولون إنّ الزّمن يُنسينا أيّ شيء، الألم والوجع، حتّى أحبّاءنا الأموات، سأصلّي لأنساك، ليقلّ الوجع.

الوداع يا جرحي النّازف أبدًا. الوداع يا نوري الذي أطفأته بيديّ هاتين. الوداع يا أنت.

وأطفأت زرّ "الواي فاي" لحظات، وحظرته من قائمة المتّصلين لكي لا تضعفها محاولاته في استرجاعها، ربّما تلملم شتات ما تبقّى من كيانها، وتنساه، وتتابع حياتها سعيدة راضية.

يوم، يومان، ثلاثة، أسبوع، ووائل يغرقها اهتمامًا، وغزلاً، وحبًّا، وجنسًا. أسبوع والحظر على هاتفها وعلى قلبها محكم الإقفال، محكم الإلغاء. أسبوع وهي تصارع ذكريات حروفه. أسبوع كامل، كلّما رنّ جرس الواتساب ومض قلبها شوقًا وحزنًا، وقفز قلب وائل شكًّا وخوفًا. أسبوع بذاته، تبادل وائل الحبّ بحبّ. ولكنّ عينيها الحزينتين، الضّامرتين عن انطفاء أمل عميق، كانتا تفضحانها أمامه باستمرار.

- جميلة قصّتك القصيرة الجديدة.

بلامبالاة حائرة:

- حقًّا؟ أعجبتك؟

وتابعت بفضول مفتعل، يشبه افتعاله متابعة نشاطاتها الأدبيّة على غير عادته:

- ما الذي أحببته فيها؟

حاول أن يستجمع أفكاره ليقدّم نقدًا لم يُقدِم على مثله في حياته، وقال بتكلّف:

- أووه، أحببتها كلّها على بعضها، الفكرة والكلمات.
- وماذا في الفكرة والكلمات؟
- كيف يعني؟ ماذا فيهما؟
- أقصد ما الجميل في فكرة القصّة وكلماتها؟
- الفكرة جديدة ومهمّة، تجربة قد يمرّ بها أيّ شخص، والكلمات أنيقة.

رغم استماتته في تعويضها النّقص في حواراتهما الأدبيّة شبه المعدومة، إلّا أنّ جوابه جاء ساذجًا، جاهلاً كما توقّعت. واكتفت بهزّ رأسها مع شبه ابتسامةِ شكرٍ مصطنعة أصابته في صميم رجولته القاصرة عن عمق أدبها، وبُعد رؤاها، وعادَ وخْزُ أفكاره في خيانتها الزّرقاء مع شاعر مثلها يحرقه، يسلخه، فما كان منه إلّا أن سألها باستعطاف طفل لأمّه:

- ثمر، أتحبّينني؟

سؤال، نادرًا جدًّا ما طرحه عليها وائل طيلة عمرهما معًا. كان واثقًا من امتلاكها حتّى النّخاع. كان موقنًا أنّه يحتلّ حياتها،

وفكرها، وقلبها، وجسدها، وأنّها عصفورته التي لن تكسر قفل قفصه أبدًا، ولن تقوى يومًا على الطّيران. سؤال، كان يستقطع كلامهما دائمًا، تسأله إيّاه، هي، باستمرار، مرّات عديدة كلّ يوم. كانت تشكّ فيه، في كونها "حياته" كما سمّاها على هاتفه منذ الشّهر الأوّل لهما معًا. كانت دائمة التّساؤل حول ما إذا كانت بالفعل تسكنه، تشغله، تملكه، كما كان يملكها، كان ماضيه "الشّهير النّاشط" يجنّنها، فتغار عليه من عشوائيّة نظرةٍ تجاه إحداهنّ، أو قصد تأمّلٍ لأخرى. لم تكن قليلة الثّقة بنفسها هي، كانت تشكّ فيه هو، في اكتفائه بها، في انكفائه إليها، في توبته فيها. لأوّل مرّة منذ زمن، يعترف لها بأنّه يغار عليها حتّى الجنون، بأنّه يراها الأكثر إثارة بينهنّ، بأنّه يعشق تفاصيلها واحدًا واحدًا. لأوّل مرّة منذ عقدين، يشكّ في حبّها، يشعر أنّ عصفورته استحالت عقابًا خلع القفص وحلّق عاليًا، بعيدًا جدًّا.

- أحبّك.

تهمس بها بخجل، وتعني بها، أقدّر احترامك عشرتنا، أحترم غفرانك خطئي فيك، ولكنّني أخشى أن أضعف وأخون ثقتك مجدّدًا. أخشى سحر الأزرق، أخشى لعنة النّور، أخشى أن... وتذهب في شرود صامت بعيد، تغيب فيه مع نور، في حلمهما. سألته ذات يوم عقب مؤتمر كبير، نظّمه من بعد نظرًا لشدّة

صعوبة، وارتفاع تكلفة إقامته حضوريًّا:

- نور، لو كان لك أن تقيم هذا المؤتمر حضوريًّا، فأين كنت تختار أن تقيمه؟
- يااااه يا ثمر! ليتني! ليتني أستطيع ذلك لكنت أقمته في الـ "فور سيزنز هوتيل" على النّيل!
- ومن يأخذك إلى هناك ويقيم لك أجمل مؤتمر، ماذا تعطيه؟
- حياتي يا ثمر!
- طيّب اجمع أيّامك يا حلو، وحضّر ماضيك وحاضرك ومستقبلك، ولفّها في كيس لآخذها معي.(مع وجه غامز) اقرأ يا نوري، اقرأ واحلم معي...

في أفخم قاعة رسميّة من قاعات الـ "فور سيزنز هوتيل"، بأنوارها السّاطعة، بكراسيها المخمليّة الوثيرة الممتدّة على مدى المساحات الشّاسعة، بسيراميكها المبهر ذي انعكاس المرايا، باللّوحات الزّيتيّة المضاءة المنثورة على الجدران الرّخاميّة: من "صرخة" "مونك"، و"ليلة نجوم" "فان غوغ"، و"فتاة القرط اللّؤلؤيّ" لـ "فيرمير"، وذاتيّة "فريدا كالو"، إلى "قبلة" "كليمت"، و"ثبات الذّاكرة" لـ"دالي"، وغيرها من نفائس اللّوحات وأجملها. وبعد جهود مضنية، وسهر طويل في التّحضير لهذا الاحتفال

القيّم، حان الموعد المنتظر، باليوم، والسّاعة. أنت ومساعدوك وآخرون منهمكون في تفقّد التّجهيزات اللّوجستيّة داخل القاعة: شاشات العرض، ونظام الصوت، وأقفال الإضاءة، وترتيب الأدوار، والتّنسيق الأخير لاستقبال الشخصيّات.

وأطلّ أنا، بِلَوْنك المفضّل: طقم رسميّ غاية في الأناقة، غاية في الإثارة، يلتصق بتضاريسي، يعيد رسمها، ينضح وجهي نضارة، تشرق عيناي كحلاً، وينسدل شعري، قاتلك، بالقصّة والتّصفيفة اللّتين تعشقهما. أدخل، أقترب منك شيئًا فشيئًا، أصير على بعد أمتار قليلة من هيبتك، من سحر وجودك، أناديك: "إستاذ نور، بونجور، يعطيكن العافية شباب!" ترفع رأسك عن انهماكك في التّرتيبات، تجفل، تخرس، تنخطف... أدنو من هالتك، قليلًا قليلاً، أقول برسميّة كبيرة ليسمع مَن جنبك: "معليه إستاذ نور، بتسمحلي بكلمتين على انفراد بليز؟". تعود من انخطافك، تجيب: "ها؟ آه! أوي أوي اتفضّلي حضرتك". أسير أمامك، تتلقّف خطاي، عطري، صوتي. ينادونك وأنت مسرع، تلحق بي، وتجيبهم: "معليش، بعدين، بعدين أكلّمكم".

القاعة أعرفها زاوية زاوية، لقد شهدت فيها على الكثير من الأحداث الثّقافيّة المماثلة، ونسّقت مع العاملين في الفندق أمورًا تتعلّق بالتّنظيم الخفيّ لبعض الاحتفالات التي أُقيمت

فيه، وشاركت في الإعداد لها. أنحو بك إلى بقعة مخفيّة لا يصل إليها إلّا العليم بدقائق هذا الفندق. زاوية خافتة الضّوء، معتمة، أسحبك إلى الحائط، أسمّرك، أشهقك بقبلة شبقة، مجنونة، طويلة، أسحب شغفك، وأنا أمرّر يدي بين فخذيك. ترتعد، تلتقط أنفاسك المختنقة تقول: "والله مجنونة!!! بعشق أمّ جنونك!" أضحك ضحكتي إيّاها، وأردّ: "شو يا حلو؟ كيف الأدرينالين؟ هلّق صرت جاهز للاحتفال، بدّي ياك طاير فوق على "المسرح". أطبع قبلة سريعة على شفتيك: "يلاّ" حبيبي، ما فينا نتأخّر، كلّن ناطرينك، طير، حلّق، ضوّي!!!" أقترب من أذنك: "أنا ويّاك بعد ما خلص حديثنا، بشوفك بالأوتيل بعد المؤتمر".(مع وجه غامز)

- ثمر، أين سرحت؟

تعود من غيابها الأزرق وتصطنع ابتسامة خفيفة قائلة:

- أنا معك يا وائل.

يجيبها بنبرةٍ لائمةٍ:

- لا لست معي يا ثمر. أنت معي بالجسد فقط، أمّا عقلك وقلبك ففي مكان آخر، أخشى أن أتخيّله. ثمر، أنا مدرك صعوبة ما نمرّ به كلانا. أنا مجروح أتعافى، وأنتِ...

تقاطعه بنبرةٍ حزينةٍ:

- أنا لا أحد يعرف بحالي يا وائل.

- بل أعرف تمامًا ما تشعرين به. أنت تائهة، مشتّتة ما بين ولائك لي وللعشرة وللأولاد، وما بين "السّحر" الذي خطفك مع (ويميل برأسه) تَدرين مَن. أنا إنسان يا ثمر، وأعلم أنّ الانجراف في أمور القلب والإعجاب والكلام الجميل سريع، ولكنّ العودة عنه صعبة جدًّا. أعرف كذلك أنّك تحاولين كثيرًا أن تتناسي مشاعر جميلة أحسست بها عندما كنت تقرئين قصائده فيك، وما زلت تتذكّرينها باستمرار. صحيح أنّني لا أرتقي إلى علمك وأدبك، ولكنّني خبير جدًّا في أمور الحياة والعلاقات، أحبّك وأفهمك وأعقل ما تمرّين به بنضج كبير لأنّك كنت ضحيّة كلام جميل لطالما حلمت بسماعه. لا تستسلمي للخيالات العائدة إليك من بعيد يا ثمر، ناضلي، كافحي، تقوّي بي، بوجودي جنبك، تعالي إليّ كلّما أحببت أن تتكلّمي في أيّ موضوع، سأسمعك وأناقشك بقدر ما يسمح اطّلاعي بذلك، ولكنّني لن أتركك رهن أفكارك وتشوّشك.

تطأطئ رأسها صامتة، مطرقة، وتخونها دموعها. فيلتهب غضبًا يحاول عبثًا إخفاءه:

– أف! لهذه الدّرجة يا ثمر؟

تصمت عن ألم غائر في العمق. فيسألها بنبرة محقّق في أمن الدّولة:

– أما زال يحاول الاتّصال بك؟

– لا، لا تواصل بيننا. فأنا حظرته على هاتفي.

– وهل حظرته من قلبك وفكرك يا ثمر؟ ها؟

– إنّ ما في قلبي يخصّني أنا يا وائل، وسأحتفظ به لنفسي. على كلّ هذا موضوع صار خلفنا، وسبق أن طويناه، دعنا من الكلام فيه، "خلِّ" ما في القلب، في القلب. أرجوك دعنا نتعافى معًا، وعدني بألّا نفتح هذا الموضوع مطلقًا.

(١٩)

أسبوعان على الهجر، والوجع هو هو. أسبوعان على الموت، والذّكريات أطيافٌ تقلّب عليها الآلام. مليون مخطئ من قال إنّ الزّمن يُنسي أو يُقسّي! تناولت هاتفها، همّت بفكّ الحظر، تردّدت. لن تنكث بوعدها لوائل. عليها أن تقاوم، أن تجابه، أن تحارب! أهكذا تستسلم بعد أسبوعين؟ عليها أن تكابر، وستنجح.

لم تكن تعرف أنّ فاقد الرّوح ميت بالقوّة وبالفعل، والميت لا يحارب، ولا يكابر، ولا يقاوم. وهي عندما هجرته، تركت روحها معه. الآن فقط فهمت مغزى مقارنات نور المستمرّة بين الحبّ والعشق، الآن فقط أدركت، وهي وسط البحر، والزّورق يتهادى بهما ويشرفان على الغرق خلاصًا، أنّها أحبّت زوجها، كلّ الحب، ولكنّها عشقته هو منتهى العشق. وشتّان بين الكلّ والمنتهى! لم تفقه إلاّ بعد أن تواجها على المسرح الأزرق، غور تراجيديا تنافر مغناطيسيهما.

أسبوع ثالث، فرابع، وهي تذوي شوقًا، وتذوب ألمًا. شارفت على إدمان المُسكر، فوجدته يطلّ عليها من نشوة الكأس، يمسك بيدها ويأخذها إلى نشوة ذكراه. صارت تدخّن علّها

تنفخ في الهواء زفرات ألم الافتقاد، فإذا بشبح صورته يتراءى لها في بياض الدّخان، فيحملها على غيمة من شغف ونور. أملت خيرًا في الموسيقى، فوجدت في كلّ أغنية وجهًا من وجوه حكايتهما، وحلمهما، ولكنّ أغنية واحدة، باتت توقيعة خاصّة لحبّهما، أسمعَتْها إيّاها صديقتُها بالصّدفة:

بعد حبّك، بعد أجمل حبّ عشتو معاك، يا حبيبي

بعد حبّ العمر كلّو، أيّ قلب يقولّي عرف الحبّ

بسكت وابتسم، وقول في بالي بلاش أقولّو...

نفسي أقولّو، سطر واحد، من حكايتي معاك كفاية،

بسّ أخاف يفهم وبعرف إنّو مش عايش حكاية!

كلّ الحكايات، ما تجيش ثواني، من حكاية حبّك إنت

كلّ الكلام في الحبّ هوّ، كلمة وحدة منّك إنت، يا حبيبي!

جفلت، واستحالت عيناها بركتي دموع...

يا اللي حبّك، حبّ عمري ما يجي بعدو حبّ تاني

صعب أشوفو صعب أحسّو!

وشهقت باكية... تقهقرت جيوش صبرها، وسقطت صريعة الحقيقة المرّة: حبّه هو حبّ عمرها المستحيل، المجرّد الذي لا

نظر فيه، ولا لمس، ولا شمّ، ولا سمع، ولا ذوق!

أيوه من كتر اللي شفتو بقول ما بين قلبي وبيني

أيوه إنت الحبّ نفسه، كلّ لحظة بعيشها جنبك

حتّى وانت مش معايا، إنت أوّل حبّ بان لي

من بدايتو مالوش نهاية......................

وهي، تطرق مصغية، وسط الدّموع، الدّموع، الدّموع...

لم تتوانَ الصّديقة عن مساءلتها مرارًا عن سبب هذا التّأثّر العجيب بهذه الأغنية بالذّات مع أنّهما أمضتا معظم فترة قبل ظهر ذاك اليوم على "التّراس" تستمعان إلى أحدث الأغاني، وتتبادلان آخر الأخبار الفنيّة وتتصفّحان مواقع الألبسة وآخر صيحات الموضة، وتتراميان بالنّكات البذيئة وتتضاحكان طويلاً جدًّا.

- لا شيء يا غوى. لا شيء.

- على غوى يا ثمر؟ أنا أعرفك منذ الطّفولة يا فتاة، ترعرعنا معًا، واكتشفنا الدّنيا معًا، وتسلّلنا من أهلنا معًا، وتزوّجنا في الشّهر ذاته معًا. أنا مرآتك يا ثمر، أنا سرّك، احكي، احكي يا بنت! فأنا أصغي.

- ليس هناك ما أحكيه يا غوى، يبدو أنّها هورمونات ما قبل الدّورة الشّهريّة تتلاعب بأعصابي كالعادة. صرتِ تعرفينني، خلال هذه الفترة، تقرب دموعي، ويكثر تأفّفي، ويعلو صوتي، ويتكاثر افتعالي لمشاكل سوء التّفاهم، وأنا لا أكون أنا.

تقاطعها:

- فعلاً، أنتِ لم تعودي أنتِ منذ أكثر من شهر! انطفأ بريقك يا ثمر. أين ثمر الضّاحكة، اللّاهية، الفرحة؟ ماذا يجري يا ثمر؟ الأمر له علاقة بأهلك؟ بالأولاد؟ أجيبي يا ثمر! أخفتني! هل الأمر صحيّ؟ أنت مريضة! بالله عليك أجيبي!

بقيت صامتة، ولكنّ نظرتها اللّامبالية أشارت إلى أنّ المشكلة لا علاقة لها بكلّ ما ذكرته.

- أهو وائل؟ أيتعلّق الأمر بعلاقتكما من قريب أو من بعيد؟ مستحيل! فأنتما العاشقان النّموذجيّان، والزّوجان المثاليّان! تكلّمي يا ثمر!

- لا يا غوى، أنت قلتها. أنا ووائل زوجان عاشقان. حاشا أن يكون الأمر كما تعتقدين. قلت لك هرمونات وكفى!

لم تقتنع الصّديقة بكلام صديقتها، ولكنّها احترمت

رغبتها العميقة، الشديدة، الثّابتة في عدم الإفصاح. لكنّ عيني ثمر الذّابلتين من وهَن، وضحكتها الذّاوية من ألم، وشرودها المتواصل من حزن، لفتات كانت تفضح كلّ محاولة لها في إخفاء شيء ما، شيء كبير، كبير جدًّا.

أصابتها تلك الأغنية في المقتل، وكفرت بوعدها لوائل، وبالمبادئ الإنسانيّة الصّارمة، وبالرّباط الزّوجيّ المقدّس، وبكلّ شيء ما عدا هذا العشق القاتل. استلّت هاتفها، أزالت الحظر، وكلّمته:

- نور، أنت هنا؟

كانت بيانات الواتس تشير إلى أنّه على الخطّ (أونلاين). انتظرت وانتظرت حتّى تحوّلت رسالتها إلى إشارة زرقاء تؤكّد قراءته لها. تسارع نبضها، سرت قشعريرة من نار في كلّ مسامها، شارفت على الاختناق لهفة وتوتّرًا وعشقًا، ولكنّها، لم تلقَ منه جوابًا.

- نور، أعلم أنّك هنا، وأنّك تقرؤني، وأنّك مكلوم، ولكنّ ألمي يفوق ألمك أضعافًا مضاعفة. أنا أعيش حياتين، أتمزّق شرّ تمزّق كلّ يوم، أحبّ وائل وأحترمه ولا أريد أن أنكث بوعدي، والله لا أريد، ولكنّي أذوب إليك، أتوق

إلى أحاديثنا، إلى عشقنا، إلى اللّهيب المنطفئ في روحي الذّاوية إليك، هناك، في القارّة الأخرى. أشعر بسحر غريب، رهيب، غامض، يشدّني إلينا، إلى ما عشناه، سحر، يتخطّاني عقلاً وقلبًا، سحر لم أعد أعرف معه من أنا، سحر كونيّ، أشدّ من قدرتي البشريّة على المقاومة. نور! أجبني يا نور!

تصل الرّسالة، تزرقّ، لا جواب.

- حسنًا يا أنت، شكرًا جزيلاً على تجاهلك القاسي لقلبي النّابض إليك. كن بخير.

صعقها صمته. قتلها سكوته. جرحها انكفاؤه عن ألمها في الوريد، فنزفت فيه شِعرًا، حتّى الموت. أرسلت إليه في اليوم التّالي رسالة صوتيّة طويلة، مضمّخة بالدّموع والأسف والنّدم، ووعدته بأن تخفّف ألمه في جرحها له، بقصيدة كلّ يوم، إلى أن تغيّر الظّروف ذلك، أو أن يشاء هو أن يفكّ قيد صمته.

كانت على وشك أن تموت شوقًا، ما كانت تعرف شيئًا عمّا يخبّئه لها سكوته.

(٢٠)

اليوم الأوّل بعد العودة.

- صباح الشّوق يا نوري، أرجو أن تكون بخير.

انتظرت، ازرقّت الرّسالة، لا جواب.

- واضح أنّك لن تجيب، إليك قصيدتك، عند ازرقاقها أتركك لصمتك. إلى الغد يا أنت. تذكّر "سأحبّك دومًا".

تساؤل

قلْ لي

بالشّوقِ عليكَ!

كيفَ باتتْ

أقصى أحلامي

حروفُكَ الزّرقاءْ؟

كيف أصابَني

اختلالُ الحواسّ؟

كيف صرْتُ أتعطّرُ

كي أقرأَكَ

كي أسمعَكَ

لا كي أراكْ؟

قُلْ لي

بالعشْقِ عليْك!

كيفَ وصلَ بيَ الأمرُ

لتُبكيني عليْكَ

كَلِمَة

وتُميتُني فيكَ

كَلِمَة

وتُحْييني منْكَ

كَلِمَة؟

قل لي

بالحبِّ عليكَ!

كيفَ أمسى صمتُكَ

المهيبُ

معبِدي؟

أسجدُ فيه

دقائقَ كلَّ يومٍ

أناجي الوجعَ

أحاكي روحي التي

فيكَ،

أطمئنُّ على نبضي

الذي معكْ...

قل لي!

قل لي!

يا شاعري الحكيم

باللهِ عليكَ!

كيف صرتُ أنتَ

وصرتَ أنا؟

(٢١)

اليوم الثّاني بعد العودة.

- صباحنا. أشتاقك.

أرسلتها وانتظرت اللّون الأزرق ساعتين كاملتين، كانت تتكسّر فيهما خلجاتها على ميناء صمته، إلى أن...

- أعلم أنّك لن تتكلّم، لن تفكّ حظر سكوتك بسهولة. اسألني أنا، أنا أكثر من يعرف رأسك اليابس وكبرياءك النّاضج. على كلّ، هذه قصيدتك، اقرأني، وكن بخير. إلى الغد يا أنت. سأحبّك دومًا.

فضيحة

الصباحُ الثّالث والثّلاثون

في تقويمِ الهَجْرِ...

لا يا أنتَ

أنا لستُ بخَيْر

طفلتُكَ يتيمةٌ

وتينُك ممزّقٌ

شمسُك سقيمةٌ...

نطفةُ شوقِكَ

في رحِمِ حُزْني

تكبرُ

كلَّ صباحٍ

أكثرْ

تُرى، يا قاتلي الرّصينْ

كيفَ أُخفي حَمْلي

من شغفِنا

مدّةً أطوَلْ؟

تُرى، كيفَ أمنعُ دموعي

تفضَحُني في عشقِكَ

كلَّ مساءٍ

أكثرْ؟

(٢٢)

اليوم الثّالث بعد العودة.

صباح العشق يا نور. لو تدري كم أشتاقك!

انتظار طويل للأزرق، وصمت أطول...

لن تجيب. أعلم أنّك لن تُجيب. إليك قصيدتك، والى الغد يا أنت. سأحبّك دومًا.

الرسائل الزرقاء

أما زلْتَ تذكُرُ
عبورَ القصائدِ
فوقَ الجُسورِ الزرقاء
وضفّتانا تَفيضانِ
وَلَهًا
وعِشْقًا
وجوعًا
وصَبًّا...

أستقبلُ حروفَكَ
بالتّهليلِ
بالتّدليلِ
تحبو على صدري
ألاغيها
أفتحُ لها قلبي
أواريها
دفءَ الوَتينِ
هناكَ بين الشَّغافِ
أُداريها...
ببرودٍ تستقبلُ حروفي
على البابِ تحاكيها
تنتقدُ
رعونتَها
تنافرَها
قساوتَها
تعاندُ

تغضُبُني

تُباكيها

فأثورُ لها

أدافعُ عنها

أتهمُكَ بِجُمودِ الحِسِّ

بانعدامِ الذَّوْقِ...

قلْ لي

يا من أَسْقَمَني في

رِضاه

هلْ كنْتَ تَدْري

أَنَّهُ سيأتي يومٌ

فيهِ

ننتحرُ فوقَ الجسرِ

ويصبحُ لقاءُ

الخواطرِ

أقصى أمانينا؟

(٢٣)

اليوم الرّابع بعد العودة.

- صباح الشّوق القاتل يا نور.

صباحك يا ثمرتي.

آه كم أشتاقك يا نوري!

وأنا يا أنا، أموت في بُعدك!

أتعرف؟

ماذا يا عشقي؟

- اضحك، اضحك، ومن غيري يضحكك، ويبكيك، ويحييك؟

ترسل حديثها الأحاديّ معه، مع نفسها، وتنتظر... يزرقّ الرّماديّ و...

- لن تجيب ها؟ طيّب. أردت أن أخبرك أنّ صمتك جعلني "أكلّم نفسي". أليس هذا ما تقولونه عندكم في مصر؟ نعم يا أنت، أنا صرت مجنونة فعلاً. مجنونة بغيابك، وصدّك، وصمتك. ولكن، على أيّ حال، هذا لن يغيّر موقفك، أعرف. لذا، إليك قصيدتك، وإلى الغد يا قاتلي الصّامت.

تَحرَّكْ

تحرّك!

جِدْ لنا طريقًا!

اُحفُر في فَلاةِ

البُعدِ

سبيلًا للّقاءْ.

أنا أَدّيْتُ لِلعذابِ

قِسْطي،

تقَبَّل من

مَعبودتِكِ

فُروضَ الشّقاء...

تَحرَّكْ!

جِدْ لكَ

في صخرةِ الصَّدِّ

خُرمًا،

واهمِسْ فيهِ

قصيدةً

بل كلمةً

بل حرفًا،

رمزٌ واحدٌ

على أيِّ جدارٍ

يكْفي

ليورقَ الإسمَنْتُ

أمَلًا

في العَراءْ...

(٢٤)

اليوم الخامس بعد العودة.

- صباح عشقنا يا أنت. أشتاقك، وأعلم أنّك كذلك، وأعلم أنّك تحيا على الأزرق مثلي. وأعلم أنّك تنتظر قصائدي، وتتوق إلى كلماتي، وإلاّ فلِمَ لَمْ تحظُرْني إلى الآن؟ لمَ لا توقف الرّماديّ من الازرقاق؟ لمَ لا تجيب وتوسعني جراحًا وألمًا؟ لمَ لا تنتقم لرجولتك المجروحة فيّ؟ لأنّك تموت فيّ يا أنت، وليس لك منّي خلاص.

ترسل الرّسالة، تنتظر، تزرقّ، لا جواب...

- أوووف من عنادك!!! إليك قصيدتك يا أعند الرّجال! إلى الغد يا قاتلي الصّامت.

استحالات

وكأنَّ قارّةً كاملةً

بيننا

لا تكْفي

وكأنَّ ثنائيةَ

المسيح# محمّد

بينَنا

لا تكْفي

وكأنَّ المستحيلاتِ

السّبعةَ المُترامية

بيننا

لا تكْفي

حتى يزيدُنا

صمتُكَ الموغلُ

في الوجعِ

المتمرِّسُ في

إذلالِ جناحيَّ

في إخضاعي

في إيلامي

في إشباعي

جوعًا إليكْ

بُعدًا على بُعدْ...

وكأنَّ عالمًا بأسْرِهِ

بينَنا

لا يكفي

حتى تزيدُني

فلسفةُ الصّمتِ

شوقًا على شوْق...

(٢٥)

اليوم السّادس بعد العودة.

- صباح العناد يا أعند الرّجال. أرجو أن تكون بخير لأنّي لست. لا طاقة عندي لأكلّم نفسي اليوم. أنا تعبة. تعبة جدًّا. هاك قصيدتك وإلى الغد يا أنت.

ازرقّت الإشارة فورًا. لم يُطِلِ انتظارَها كعادةِ عناده في جرحه. انقبض قلبه، خاف على ثمرته، أحسّ أنّها ليست بخير. همّ يجيب. تردّد. ظهرت في أعلى الشّاشة إشارة "يكتب" (TYPING). جفلت، انقبضت أطرافها، توقّف نبضها، اتّسعت عيناها، شارفت على أن يُغمى عليها! لكنّه لاذ بالصّمت القاتل، من جديد.

- هاك قصيدتك. وإلى الغد يا أنت.

أَمَلٌ ازرق

لم يبقَ لي منكَ

سوى أملٍ أزرقَ

وتفاصيلَ مُحرِقَة

أستنشِقُها

لأبقى على قيدِ

النّبض

كلَّ صباحٍ

أبتهلُ إلى ذكرى...

أسألُ الاطيافَ

نفَسًا

من روحِكَ

أشهقُهُ

أغمضُ حرماني

أفتحُ شفتيَّ

أُصَلّي ليَقِلَّ

الوجعْ

أخرجُ من شرنقةِ

الأرضِ

وأدخلُ فردوسَكَ

الصّامِتْ

أرسلُ إليكَ

من غَورِ الحزنِ
قصيدةَ شوقٍ
ألهمتَني بها
أمسِ أو قبلَهُ
وأثرثرُ بِحَكاياي
وحدي...
نعم يا ناسكي
الصّامتْ
معكَ صرْتُ
أكلِّمُ نفسي
وأُشْفِقُ على نفسي
وأبكي نفسي
وخيبتي
أثرثرُ أثرثرُ أثرثرْ
بصمتِكَ الرّخيمِ
تَستترْ
تؤنِّبُني

تربّيني
تعلِّمُني
قيمةَ أن يعشَقَني
شاعرٌ
ويعبدَني شاعرٌ
ويكتبني شاعرٌ
وأطعنَه في
عشقِهْ،
ثمَّ أنتظرْ...
أنتظرُ ازرقاقَ الأملِ
إلى غدٍ آخرْ...
أستلُّ قناعَ الواقعِ
يَرتديني
وأقومُ أصطنعُ الحياةَ
بينَ المقابرْ...

(٢٦)

اليوم السّابع بعد العودة.

- صباح الصدّ. يا لجبروتك يا أنت! يا لقسوة جرحك في العشق! هنيئًا لك الوقت الضّائع في بُعدي. إليك قصيدتك، وإلى الغد.

الناسك

الى صَومعتِكَ

المقدَّسةِ

وجّهْتُ خُطايْ

حمَلْتُ متاعَ سَفَري:

قصائدُكَ

كلامُكَ

حكايانا التي

نسجَتْها أحلامي

الجائعةُ إلينا...

في طريقي

صخورُ دموعٍ

جلاميدُ ندمٍ

أخاديدُ حزنٍ

وسيلٌ طويلٌ

من الحرمانْ...

على باب ِصلاتِكَ

وقفْتُ

شهقْتُ

زفرْتُ

ألقيْتُ عنّي أوزارَ

التّعبْ

صرْتُ خفيفةً

فراشةً

جمعْتُ قبضتي

الخائرةَ إلا من

حفنة أملْ

قرعْتُ صمتَكَ

انتظرْتُ...

انا امرأةُ انتظارِكَ

انتظرْتُ...

همسْتُ بكلِّ جوعي

بكلِّ شوقي

بكلِّ كلّي

أنا هنا يا أنا

أمُّكَ هنا يا ملاكي

ألا تفتحُ لأمِّكْ؟

ألا تمرُّ عليَّ

بنفَسٍ تائهٍ من

أنفاسِكْ؟

تقتربُ منَ البابِ

تُلقي بهامتِكَ

المثقَلةِ

غربةً

وحزنًا

وغضبًا

ترفعُ يدَكَ عن

كبريائِكَ المهزومِ

تمسِكُ بالمقبَضِ

يتسارعُ نبضي

يمتزجُ بثقلِ صراعِكَ

النافذِ إليَّ بينَ شقوقِ

الشَّغافِ

وأُجفلُ دامعةً

على صوتِ وقعِ

قدميكَ،

وأنتَ تتركُ البابَ

وترحلُ...

(٢٧)

اليوم الثّامن بعد العودة.

- هو صباح آخر وكفى. لم يبقَ منّي فيكَ سوى موتِ الكلام. أكره ضعفي فيك، أكرهني في عشقك يا أنت. خذ قصيدتك، وإلى الغد.

جبروت

يتيمُ القلبِ أنتَ

بِكرُ القسوةِ

مدلَّلُها

عَفيُّ الصَّوانِ

مدجَّجٌ باللّاإحساسِ

تمشِّط بألغامِ العذابِ

حقولَ الفراشاتْ

كلَّ سمرٍ

تفجّرُ في فمي

لغمًا

وعلى أشلائي

تقتاتْ

(٢٨)

اليوم التّاسع بعد العودة.

- صباح آخر. أرجو أن تكون بخير، اذ لم يبق لي منك غير الرجاء، رغم بُعدِكَ، وصَدِّك، ونكْثِكَ بِوَعْدِكَ، أما زلتَ تتذكّر وعدك بأن تبقى جنبي وتدعمَني حتّى أحقّق حلمي مهما حصل، وأيًّا كان شكل العلاقة التي قد تجمعنا أو قد تفرّقنا؟ تعْلَمُ جيِّدًا أنّني اعتدت أن أرمي عندكَ وحدكَ أوزاري الأدبيّة، فأنت توأمي الأدبيّ، ونحن فعلاً متشابهان جدًّا يا أنت! في مسيرة التّعليم، في الأدب، في الفكر، في الشّغف، في الجرح. حتّى روايتك الأولى الّتي أسْرَرْتَ إليَّ أنّها كانت صرختك في جرحك من حبيبتك تلك، كذلك ستكون روايتي الأولى دمعي في جرحي منك، صدَّقْتَني أمْ لَمْ تُصدّقْني لا يهمّ. المهمّ أنّني لن أقتل جنيننا. لن أجهض حملي من حبّك. سأربّيه وحدي، وسأنجح. لن ترى طفلك. لن أسمح لك بقراءة الرواية. اِعرف فقط أنَّك معي، في حروفي، لَكَ أن تُقَدِّر ماذا تعني لي حروفي. "على فوقا"، الوجع هو هو، ألف مخطئ من قال إنّ الوقت ينسينا. أكرهك، أكرهك حتّى ينتهي الكره. بالمناسبة، لا قصيدة لك اليوم. أكرهك.

يتلاقى الأزرقان فورًا. يهرب منها، لا يجيب. يُخيّل إليها أنّه يعتصر شوقًا، وألمًا، وعشقًا. ما كانت تعرف ماذا ينتظرها من صمته، أردفت كاتبة:

- لا تخف يا نور من تلاقي الأزرقين، فأنا أعلم أنّك أقسى من ذلك، أقسى من أن تريح تعب شوقي بنسمة من كلامك. قَرّ عقلاً يا أنت!

(٢٩)

اليوم العاشر بعد العودة.

- صباح الخير.

أشكرك على الجرح، فقد كان صفعة صحوة ضمير.

أشكرك على الخيبة، فقد كانت وقود الغضب والثورة.

أشكرك على شحنات "التعقّل" العالية التوتر، فقد عقّلت جنوني إليك، وحفظت روتين حياتي الأرضيّة من الدّمار.

اِسمع يا أنت، يوم تئنّ حنينًا إلينا، تذكّر قصائدي، ولهفتي، وعشقي، وشغفي، وروحي التي "كانت" بين يديك، وابكِ، اِبكني وابكنا.

ستأتي ليالٍ تموت فيها بكاءً، وتذوب فيها شوقًا إلى كلمة منّي، ولن تجد حرفًا واحدًا يطفئ نارك.

ستأتي أيّام تتلوّى فيها عذابًا لصوتي، لضحكتي، لجنوني، ولن تسمع إلّا صدى صمت حزن أيّامك، وروتينك، وخيبتك.
أكرهك يا أنت، أكرهك بقدر ما أحببتك.

هاك قصيدتك. وإلى الغد.

ضياع

لا أعرفُ ما الذي
يوجعُني أكثر
أهوَ ذلكَ الجنوحُ
الأعمى
نحوَ لا مصيرنا
وإدمانُ الوهمِ
اللّذيذِ
يعيدُ رسمَ
طفولةِ أنوثتي
يسجّلُني في
دائرةِ الأرواحِ الرّسميةِ
امرأةً
من شغفٍ
من ولهٍ
من ولعٍ

من جنونْ...

أم هوَ سقوطُ

نيازكِ لومِكَ

على أرضي

النّديةِ

تُدمي ورودي

فوقَ أشواكِها

تنتحرْ

على نداها

تنتحبْ

وأواصلُ رقصي

فوقَ أوجاعي

أرقصُ

على دموعي

أرقصُ

في ساحاتِ الشّعرِ

أرقصُ

في ميادينِ الحبِّ

أرقصُ أرقصُ أرقصُ

حتى رقصًا

في ذكراكَ

جناحيَّ أقصقصُ

وأتركُني في فضاءِ

صدِّكَ

معلّقة

على صليبِ

صمتِكِ

ممدَّدة...

لا أعرفُ

ما الذي أكرهُهُ

أكثرْ

أهوَ موتي الرّحيمُ

أمام الشّاشةِ

الزّرقاء

وانخطافي الرّقميُّ

فيكَ وإليكْ يا شيخَ عذابي

أم هيَ لا حياتي

في حضورِكَ الواهي

والغيابْ...

(٣٠)

اليوم الحادي عشر بعد العودة.

– صباح الخير يا أنت. لم يعُد عندي قوّة لأقاوم الألم. لقد نفذت روحي فيك. رُدّ عليّ أو اسكت إلى الأبد. سئمتُ لعبتك السّاذجة هذه. سئمتُ صدّك الواهي. نور، أنا انكسرتُ، وخضعتُ، وعبدْتُ، أَما آنَ للصوّان أن تُليِّنَهُ آهاتي؟ أما آن للكرامة المصدوعة أن تُلْحِمَها دموعي، ونزفُ جراحي؟ أما آنَ للقلب القاسي أن يُشفق عليّ وعليه؟ أما آن للعبد المتألِّهِ أن يتوبَ إلى معبودته؟

نوري، ارحم عمرنا الباقي، كم بقي لنا من العمر؟ ألا يستحقّ هذا العشق منك حياة؟ ما قيمة سنينِك الآتية من دون صباحاتي، وقصائدي، وجنوني، ونوري، وسؤلي، وحناني، وأمْني، وصباي؟ وما قيمة الآتي من حياتي بلا شغفك، بلا شعرك وحكمتك ونصائحك، وبلا وجودك، بلا روحي التي معك؟

نوري، أنا مثلك كابدتُ، وكابرتُ، وفهمتُ أنّه ما مِن حلٍّ: إمّا أن نحيا في الهجر بلا حياة، أو نعشق في السّر لنحيا... دعْنا نلتقي، نشتكي، نتعاتب، نتقاتل. قلْ شيئًا يا رجُل! قلْ أيّ شيء! قلْ جرحتِني في عمق كبريائي! قلْ قسَوْتِ! قلْ كذبتِ! خنْتِ!

قلْ كرهتُكِ، أو قلْ إنّي ما زلتُ في قلبك، في الفكر، في شغاف الرّوح. قلْ إنّكَ تعيش على تفاصيلنا، على ذكرياتنا، قلْ إنّكَ تنتظر قصائدي ترشفُها مع قهوتك، "مورفين" صبْرٍ على سَقَمِ أيّامِك. قلْ إنّكَ ما زلتَ تراني بين عينيك، في تفاصيل أحلامك، في منامك، قلْ إنّني في حبر قلمك، في صميم أخبارك. قلْ يا نوري، إنّني ما زلتُ عمرك الماضي والآتي، "فينوسك" التي لا تغيب، وشمسك التي لا تنطفئ.

واجهْ حقيقتك وأثبِتْ، أثبِت ذلك، ضعْ عينيك في دموعي، وأثبتْ ذلك، انظر إلى وجهي الواهن لتعرف أنّني لا أحيا إلّا فيك وبك. أُمضي الوقت معك، أكتب إليك، أبكيك، أبكيني، وأبكي مصيري، أصارع ضميري، ويصرعني حزني فيك، في صمتك، في صدّك.

أعشقُكَ يا معذّبي! بكلّ شغف الأربعين...

نوري! ارحم احتضارنا الطّويل، اقتلْني يا نوري وأرِحْني من وجع صمتك، من موتي غيرِ الرّحيم، أو تعالَ نخلُق لنا وسطَ هذا المستحيل فسحة أمل، نتكاتب فيها، نتحابّ، نتشاجر، نتصالح. لك تركت الخيار، بعد أن أنهكني حمل الانتظار، بعد أن أوهتني جراح إهمالك، بعد أن أشبعَتْني كرامتي جلدًا ولومًا. ليتك لم تقسُ عليّ يا نوري! ليتك لم تُكَبِّر طفلتَكَ وتسحق جنونَها.

اليوم يا نور، اليوم وليس غدا، اكتب وصيّتك في عشقنا، أو اكتب لِحُبِّنا أن يتجدّدا.

أزرق، وصمت، و...

- صباح الألم يا ثمر.

أضاءت الرّسالة عتمة الشّاشة، والنّهار، والعالم، والكون.

- كيف أنت؟
- تقصدين كيف صحّتي؟ أم كيف أنا في بُعدك؟
- الاثنان سيّان يا نور.
- مغرورة.
- جاحد.
- خائنة!
- جبّار!
- قاسية!
- صوّان!
- وأحبّكِ، وأشتاقكِ، بل وأموت شوقًا إليكِ يا ثمرتي! لكنّ كبريائي قاتل! رجولتي تهزمني! صراع القلب الباكي

والعقل الخائب ينهشني! ماذا تريدين منّي بعد؟ قتلتِني يوم تركتِني، يوم اخترتِه هو على حساب حلمي الجائع الأكبر، يوم صفعَتني أولويّاتُك وأنا العاشق الواهي. دعيني وشأني يا ثمر! أطلقي عليّ رصاصة الرّحمة واتركيني نهائيًّا ولا تعودي.

كانت تعلم جيّدًا أنّها لن تهون عليه، أنّها كلّ حياته، أنّه يذوي شوقًا إليها، ولكنّه يكابر.

- تريد رصاصة رحمة؟ خذها. لا كلام عندي أقوله. لقد أشبعتك عشقًا وتيهاً وجنونًا، وأنت تعيّرني باختياري؟ اِسمع يا نور، يومَ وعدتُك باللّقاء السّحري، ما كان وائل يعرف بحكايتنا. كنت أقامر بمَصيري، بروزنامة حياتي، كانت عائلتي وولداي وزواجي وواقعي واستقراري ومستقبلي كراتٍ ملوّنةً أتلاعب بها كَمُهرِّجٍ محترفٍ في سيرك، لا هو يتعب، ولا هي تسقط، إلى أن حصل ما حصل وعرف وائل، وسقطت كلّ الكرات على رأسي!

- ما الذي تغيّر يا ثمر؟ ما زلنا نتعاشق، ووائل لا يعرف أنّني عشيقك الحقيقيّ، وأنّني في مصر، لو قرّرتِ السّفر الآن، لكان وائل، منطقيًّا، سهَّلهُ لكِ ليُبعدكِ عن عشيقك اللّبنانيّ الوهمي. أنا لا أرى مانعًا للقائنا! إن كنت فعلاً تعشقينني

فتعالَي إليّ! تعالَي لنجعل الأزرق أبيض، تعالَي لتصير الصّورة وجودًا، تعالَي لتصير الفكرة لمسة، ليصير الخيال الجامح حقيقة من نار ونور! تعالَي لنعيش بعضنا البعض، ليتلاقى الأزرقان، لنتحابّ على الأرض لا على الشّاشة! كفرتُ بالشّاشة يا ثمر! كفرت بالأحلام، بالخيال، بالأوهام! كفرتُ بالبعد، بالمسافات، بالقارّات! تعالي إليّ يا ثمر! تعالي إلى نورك، اهرُبي من عتمة الحرمان، من ظلمة الخوف، كسّري القيد يا ثمرتي وتعالَي إلى نورك!

– أتوق إلى هذا يا نور، والله أعلم بدواخلي، ولكنّ نخر العذاب في صخرة ضميري يؤرقني. لنفترض أنّني جئتُ إليكَ وعشنا ما عشناه، وحقّقنا حلمنا الأكبر ليومين أو ثلاثة أو أسبوع، ماذا بعدَها؟ سأعود إلى بيتي مدنّسةً بالعشق، لأتقاسم سريري الزّوجيّ مع الذي غفر خطئي ومنحني فرصة أخرى، بدل أن يتركني، أو يطلّقني. أهكذا أكافئ القلب الطيّب الذي تعالى على نزق كرامته، وتسامى على صراخ رجولته، وسامحني، بل وحاول وما زال، أن يكفّر عن إهماله الذي، قد أيقن كلّ اليقين، أنّه السّبب الأساسيّ خلف سقوطي الأزرق؟ أبخُبْثِ الخيانة أقابل وفاء الطّيبة؟ أبِعَجْزِ المقاومة أتحدّى معركة الشّهوة؟

- باللهّ عليك يا امرأة! أنت تجنّنينني! كيف؟ كيف؟ قولي لي كيف تحبّين رجلاً وتعشقين آخر في آن؟ قولي كيف تفصلين بين حدّ المشاعر وتسيرين على سكّينها دون أن تنزف قدماك، أو أن تسقطي مجنونةً؟! أَتُراكِ منفصمة الشّخصيّة وأنت لا تعلمين؟ اذهبي إلى معالج نفسيّ يا ثمر، واطلبي منه المساعدة، فما تقولينه وتفعلينه ضرب من الجنون! كاذبة أنت يا ثمر، أنت لا تحبّينني، لقد استغللت براءة عشقي فصفعْتِني بقسوتك، لقد أشبعتْكِ شلّالاتُ كلامي فكفرْتِ بالتّخمة ولذْتِ بجوعِكِ إليه! لقد قتلتِني يا امرأة! قتلتِ فيّ الرّجل الحرّ، إذ تعرَّيْتُ أمامَك روحًا، وقلبًا، وعقلاً: ليتَكِ تُدركين معنى أن يعشقَكِ رجلٌ رجلٌ، فتذبحيه في رجولته، أن يقدّم لك سترة عورته الوحيدة، فتتدثّري بها وتتركيه نهش صقيع الخجل، وبرد الوحشة، وجليد الموت.
- نعم أنا مجنونة يا أنت! مجنونة بوفاءِ حبٍّ حميم، مقدّس، عظيم، وبشغفِ عشقٍ جامح، فتّاك، قاتل، في آن! أتسألُ كيف أفصل؟ أنا نفسي لا أعرف كيف أفعل! والله لا أعرف كيف! كلّ ما أعرفه أنّني أكون معه وله وأجنح إليك، وأكون معك وفيك وأفكّر فيه. آآآه من انفصام عشقي يا نور!
- لن أتمادى في جنونك يا ثمر، ولن أعشقك من بَعيدٍ بعد

اليوم. اِختاري إمّا أن تأتي إليّ لأعشقك بالجسد والرّوح، أو أن أغيب عن حياتك، وشاشتك إلى الأبد. من الآن إلى أن تُبَلّغيني بقراركِ، أنا أعتكفُ عنكِ، وعن عشقي لكِ، وعن جنوني فيكِ. الوداع إلى حينٍ، يا أنتِ. سأعشقُكِ دومًا.

سأقيمُ يا ثمرتي

حفلاً في المساءْ

مناسبًا لوداعِنا

لن تحضري حفلَ الوداعِ

ولا أنا

ولكنْ

ستحضرُ في المساء

نيابةً عنّا الدّموعْ

وخيبةُ الأملِ الوحيدِ بعمرِنا...

في آخرِ الحفلِ الحزينِ

حبيبتي

"شيك" الحسابِ محرَّرٌ

ولعلَّهُ آتٍ لنا...

الدّفعُ في الحفلاتِ

حفلاتِ الوداعِ

"فيزا" وتُخصَمُ دائمًا

من عمرِنا

من دمِنا

من لحمِنا

فلتنظُري في آخرِ البهْوِ البعيدْ

ألا ترينْ؟

فهناكَ طاولةٌ تحاسبُ قبلَنا

عجَبي على أنّ المنافي

لم تعدْ بلدًا بعيدًا في الهوى

نُنفى لهُ،

إنّ المنافي أصبحَتْ في قلوبِنا...

وأغلق بيانات هاتفه قاطعًا الإنترنيت عنه، ليُفهمها أنّه لا يريد منها جوابًا بل قرارًا، أنّه لا ينتظر كلامًا، بل فعلًا، باترًا أيّة صلة زرقاء قد تربط بينهما قبل أن تتّخذ قرارها النّهائيّ.

(٣١)

قاومت جموح خيالها إلى لمساته، تحدّت توق نهرها إلى جذعه، ناضلت ضدّ هجمات النّار من أعلى نخاعها المتخم بكلام عشقه، حتّى أخمص قدميها النّازفتين على أشواك التّيه. يومًا بعد يوم، كان يحتدم يأسها، ويرتفع منسوب شوقها حتّى أغرق ما تبقّى من جبل جليد ضميرها. كتبت على نوتتها:

خسارة

خسرتُكَ

خسرتُكَ يا أنتَ

خسرتُ شغفَكَ

قصائدَكَ

سمرَكَ

خسرتُني

خسرتُ روحي

الهائمةَ معك...

لا أعلمُ كم بقيَ لي

من الدمعِ

لأبكيهِ في صدِّكَ

في جراحِكَ

في تكذيبِكَ لأصدقِ

ما فيَّ

جوعي إليك...

تقول: لا يهمّ

وماذا بعد؟

وما الفائدة؟

وأنتَ عالمٌ منذُ

الشّاطئِ

أنَّ رحلتَنا بَحريّةٌ

لا غرقَ فيها

ولا نجاةَ منها

أنت عارفٌ أنّهُ

لا أرضَ لحبِّنا

ولا سماءْ

طيران ورقصٌ في
السّرابْ ...
لقد أحببتُكَ يا
سقمي
ومرضي
وجنوني
أحببتُكَ وما لي
من عشقِكَ خلاصْ
وما لي في حبِّكَ
حياةْ ...
أخشى يا وجَعي
أمضي العمرَ
جريحتَكَ
باكيتَكَ
وتبقى أنتَ المجلودُ
وكلانا الجلّادْ...

أيّام طويلة أمضتها بين أنياب الواقع الأبيض، يتآكلها جوعها إلى أزرقه؛ كان شوقها الفاتك إلى أنفاسه من خلف الأسلاك يُذكي احتراقها بعدًا، ووحدة، وافتقادًا. لم يبقَ لها سوى خبز قصائده المحفوظة في نوتتها الإلكترونيّة، تقتات عليه كلّ يوم، مرّات ومرّات: تفتحها، تمرّر عينيها الدّامعتين على حروفها، يلتهب قلبها بنار تمتدّ حتّى نهرها، يعتصرها ألم فؤاديّ يقطع الهواء عن رئتيها حتّى تشعر بالاختناق.

أيّام طويلة لاذت خلالها بحمى الدّين، والواجب الزّوجيّ، والأمومة... صلّت كثيرًا، والله وحده يعلم كم صلّت لتتخطّاه، لتنساه، لتحيا بَعد بُعده. الله وحده يعلم بمسامير الذّنب في نعش ضميرها، تدُقُّها الواحد بعد الآخر كلّما مرّت في خيالها ذكراه. الله وحده يعلم بانخطاف روحها منها، إليه، بهيامها المُذيب، بانعدام الحول فيها والقوّة. تقرّبت من وائل أكثر، جارته في كلّ ألاعيب إشعال ما كاد ينطفئ بينهما، استسلمت واهية لليالي الجنس المحموم يشعلها من نورها قبس حروف: " ثمرتي!"، "عشقي! ". ارتسام حروف كلمة واحدة من كلماته في خيالها المشتاق كان أكثر من كافٍ لتستحيل عاشقة من نار ونور، فتمارس مع وائل تفاصيل حلمها مع نور.

أيّام طويلة أمضتها تبحث لها في صفحته على الفايس عن

قطرة شوق منه إليها تبلّ صحراءها، عن وميض كلمة تشير خِفية إليها، عن إشارات خفيّة كانا يتبادلانها تطمئنها على روحها التي معه، عن ومضة، عن قبح، عن متلازمة واحدة تبثّ إليها شوقه، فلم تجد. لم تجد إلّا جفافًا وعقمًا وتجاهلاً واحترافًا للإهمال والنّسيان. ولَكَم تخيّلته خلف شاشته يتردّد في كتابة ما يشير إليها، إليهما، ولكم أحسّت بانزلاقها قطرات وحي مُنزَل على كأس روحه، فتتركها روحها، وتفقد إحساسها بالأشياء، فتعمى عن إرهاق أواخر الصّيف وتثاقل السّماء، وتستوي رائحة بصل الطّبخ بعطر تراب الأمطار الأولى، وتشرد بخاطرها المريض به بعيدًا، وتتجلّد عيناها بذكراه، حتّى ليخيّل لرائيها أنّها متصوّفة في عزّ الانخطاف.

أيّام طويلة جدًّا، حاولت فيها الارتداد والتّوبة ولكنّ شغفها إليه، وشبقها إلى كلامه، وجوعها إليهما، إلى ما كاناه وعاشاه وما لمْ... كان أقوى من كلّ شيء. سقطت من أعلى جبل المقاومة، سقوطًا حرًّا هشّمها، كسّر ضلوع قلبها، حطّم جمجمة عقلها، حتّى استسلمت إليه، طائعة، راضحة، هائمة، مصروعة. وفي اليوم التّالي، اتّصلت بشركة الطّيران، وحجزت تذكرة بأقرب موعد، بعد أسبوعين اثنين. لم تنم تلك اللّيلة. كانت تتحرّق لتهرع إليه، لترتمي في أزرقه، لتتمرّغ بغزله، لتتعانق حروفهما،

ولكنّها كانت قد حرّمت على نفسها أن تكلّمه في حضور وائل، رعبًا من اكتشافه أمرها، وخسارة حياتها المستقرّة، وولديها، فقد أضناها السّير بين ألغام السّمر اللّيلي الماضي مع نورها، وعين وائل تقرّ جنبها، على بعد متر واحد، عن انفجارات خيانتها روحًا هائمة، وجنسًا أزرق. كانت تعي أشدّ العلم أن عود كبريت صبر وائل يشتعل مرّة واحدة، وقد فعل فسامحها، وهو لن يفعل ثانية، وإذا ما أخطأت مرّة أخرى فستكون العواقب من مستوى الهجر الكليّ صعودًا نحو الطّلاق وحرمانها من الولدين. كانت تفضّل أن تموت شوقًا إليه، على أن تهلك بُعدًا عن عائلتها، أن تذوب في مرارة الانتظار، على أن تتبخّر حسرة في انتظار فرج رؤية ولديها. هي "امرأة الانتظار"، قبله، ومعه، وفي بُعده، وبعدَه! قبله انتظرت العشق المذيب، ومعه انتظرت النّار، وفي بُعده انتظرت الذّوبان، وبَعده ستنتظر التّبخّر. ستنتظر انبلاج صبح العشق، ستنتظر أفول نجم وائل، لتُشرق شمس نورها. سـ... سـ... لا! لا! لقد كفرت بالانتظار! وائل مصاب بالإنفلوانزا وينام في الغرفة الأخرى حتّى لا تُصاب هي بالعدوى، والوقت قد جاوز منتصف اللّيل، وصوت شخيره المتقطّع، وزكام أنفه يصمّ صمت أنفاسها المتسارعة إلى نورها. بيدين مرتجفتين من رعب وعشق استلّت هاتفها، خفّتت ضوءه ليلائم ظلمة الغرفة،

رفعت الغطاء قليلًا لتحجب رأسها، أزالت الحظر عن رقمه، وأرسلت إليه صورة تذكرة السّفر التي حجزتها، حتّى قبل أن تبلغ زوجها بموعد سفرها. أرادت أن تتخطّى كلّ المقدّمات، وأن تصيبه في المقتل. أرادت أن تعطيه ما يريده من دون مراوغة، فقد سئمت الألاعيب الصّبيانيّة. أرادت أن تخرس اتّهاماته، أن تخنق شكوكه، أن تقتل تردّده. أرادت أن يأتيها ذليلًا، آسفًا، خاطئًا. أرادت أن تستعيد روحها الهائمة حول صدّه، أن تجدّد سيطرتها على قلبها وقلبه، فقد أنهكها الخضوع والذّل ولو من أجل العشق! وما هي إلاّ لحظات حتّى:

- ثمرتي! عشقي! أخيرًا يا أنا! أخيرًا يا كلّي! أخيرًا كسرت القيد المظلم لتطيري إلى نورك؟! أخيرًا وجّهت إلى النّور سفينتك، ونفخت الحريّة في رياح أشرعتك؟! أخيرًا جثوت لإله العشق والنّور؟! أخيرًا يا ثمرتي؟!

وانهال عليها بسَيْل من القصائد المكتومة، المكبوتة قيد رجولته المجروحة في خيارها ما قبل الأخير، يوم تركته صريع عشقه وانتظاره. قصائد سالت من نسغ عذابه في صدّها، يوم جنّ من انفصامها بينه وبين زوجها، واختار أن يبتر وتينه فيموت دفعة واحدة، على أن يبقى معلّقًا على الصّليب الأزرق، يجلده ظمؤه إليها، وتتقارع مخاوفه على عري وحدته، فيُسلم الرّوح

ألف مرّة كلّ شوق!

- مساء الخير يا نور.
- مساء الأمل! مساء العسل! مساء الجمال! مساء الثّمر!
- أنا لا أنكث الوعود.
- وأنا أعلم من أنت.
- أنت لا تعلم شيئًا، لا شيء إطلاقًا.
- بل أعلم كلّ شيء! أعلم أنّك في مطحنة رحى الضّمير، وأنّك تتشرذمين ما بيني وبينهم، وأنّك كفرت بالألم، بالبعد، بالعشق! وأعلم أنّك اتّخذت قرارك تحت نير ضغوط كثيرة، وأنّك تخاطرين بكلّ شيء من أجلنا، من أجل اللّقاء الأبيض، من أجل حفنة أيّام نعيش على ذكراها دهرًا. أعلم أنّ حبّ وائل العنيف وجهوده في استرجاعك تضنيك ألمًا ووخزًا، وأنت غير قادرة إلاّ على أن تبادليه الحبّ بالطّاعة والعرفان بالمسامحة. أعلم أنّك نصف امرأة: جسدك معه، وروحك معي، وهذا الانفصام يقتلك. أعلم أنّك مثلي، تتأوّهين شبقًا أزرق لكلامي، حتّى في حلبة النّشوة البيضاء! أعلم وأعلم وأعلم...

تصمت عن دموع حرمان عتيق، وخوف من المجهول الآتي.

– ثمرتي، يا عشقي! لمَ السّكوت؟ أتبكين يا عمري؟

تمكث على صمتها وتشهق في بكاء مرير أسفل لحافها، تستفيق فيه على هول ما فعلته، وتتخيّل حياتها قبل لقائه وبعده.

– ثمر! بالله عليك أجيبيني! وحياة نورك ردّي عليّ ولا تخيفيني عليك!

– أنت تعلم أكثر من اللاّزم يا نور، لذا عليّ أن أقتلك.

مذيّلة بوجه غامز، وآخر حزين. ويتضاحكان طويلاً من مأساة قريبة في ثوب حلم.

(٣٢)

أسبوع أزرق كامل، عاد فيه قبس النّور إلى مصباح عتم أفكارها. أسبوع أخير، يفصلهما عن الحلم الجائع ليشبعاه شغفًا. أسبوع واحد لا أكثر، ويلمس نضج ثمرته، ويقشّرها بأسنانه، ويُعمِل في رحيقها لسانه، ويذوق سيل سكّرها، ويسكر منها حتّى السّكر! أسبوع ما قبل الأخير عادا فيه، خلال مرض وائل، إلى تقصير ليالي الانتظار بالسّمر والتّقاصد والتّحابّ والتّشاقي، إلى أن...

- وائل، أتذكر حديثنا بخصوص السفر؟

- نعم، أذكره جيّدًا يا ثمر. أردتِ أن تحقّقي واحدًا من أحلامك قبل أن تفوتكِ الحياة، وكنتِ قد جهّزتِ أوراقك.

- صحيح، ومنذ أسبوع تقريبًا حجزت موعد السّفر إلى القاهرة في شركة طيران دائمة تنظيم رحلات ترفيهيّة سياحيّة استكشافيّة لمجموعات نسائيّة، وموعد السّفر بعد أسبوع من اليوم، إن شاء ال...

قاطعها على عجل:

- ثمر، حبيبتي، هلّا تحدّثنا في الموضوع لاحقًا؟ تأخّرت على موعد مهمٍّ جدًّا.

تراجعت حماستها وقالت:

- طيّب، أنتظرك.

واستلقت على سريرها مأخوذة بقيلولة من سحر حلم اللّقاء المنتظر، هناك، مع نورها...

(٣٣)

- وكم ستغيبين؟
- ثلاثة أيّام.
- أهي كافية؟
- أعتقد ذلك. فالسّياحة الداخلية في القاهرة معروفة المحطّات ومحدّدة الخيارات.

رمقها بنظرة تجاهل العارف، وقال بنبرة واثقة:

- أفهم من كلامك أنّك لن ترجعي عن قرارك.

بدأت تتوجّس غرابة في لهجته، وفحوى كلامه.

- لا لن أرجع عن قراري، فأنا بأمسّ الحاجة إلى...

قاطعها قائلاً:

- إلى "نور".

سقط قلبها منها، اتّسعت عيناها، دارت بها الغرفة مرّات عديدة في ثوانٍ قليلة، ارتجفت أطرافها حتّى كادت تسقط مغشيًّا عليها. عبثًا حاولت تصنّع لامبالاة بعيدة المنال، عبثًا جاهدت لتتجاهل قوله، وبعد جهد جبّار لتلتقط ما تبقّى من أنفاسها التي

قبضت عليها نبضات قلبها المتلاحقة كرصاصات قنّاص اقتنص ضحيّته بعد ساعات من الاهتزاز والمناورة:

- ماذا؟ ماذا قلت؟ ماذا تقصد؟

- بل "من" تقصد يا ثمر، فالنّور الذي أقصده ليس ذاك الذي ينير الظّلمة، بل الذي يُدمِسها كما فعل بحياتي، بحياتنا يا ثمر. "نور يوسف"، مصري، ناشط أدبيّ على الفايس، عشيقك السّريّ الحقيقيّ، الذي وعدته بالسّفر إليه لتلتقيا، ثمّ تعودي إليّ، كأنّ شيئًا لم يكن. كانت جريمة شبه كاملة يا ثمر، إلى أن وقعت في فخّ شغفك وتسرّعك.

تراجعت بضع خطوات نحو السّرير، وسقطت عليه لاهثة كعدّاءة بلغت خطّ النّهاية بعد سباق طويل. أحسّت بحاجة عاجلة للتقيّؤ، بعد تجمّد أطرافها، وتصبّب العرق المثلّج من جبينها وعنقها ويديها، ولكنّها لم تملك القوّة لتسرع نحو المرحاض، بعد أن غابت آخر ذرّة احمرار عن وجهها الذي غشاه بياض الموت.

- وفّري على نفسك مجهود الكلام يا " ثمرته" . أليس هذا ما يدعوك به؟ "ثمرتي"، " عشقي"، " امرأتي"؟ لقد راهنت على ما بيننا حتّى اللّحظة الأخيرة. بقيت أكذّب حدسي، ونفسي

حتّى الآن. حتّى بلّغتني بقرار سفرك، بقرار اختياره هو.

- كيف؟ كيف عرفت؟ منذ متى؟

- منذ بضعة أيّام ليس أكثر. في تلك اللّيلة المشؤومة عليّ، كنت منخطفة في أحد أحاديثك معه، مطمئنّة إلى نومي في الغرفة الأخرى بسبب إصابتي بالإنفلوانزا، ظهرك إلى باب الغرفة، متدثّرة حتّى رأسك تكلّمينه. انسحبت إليك لأتفقّدك، خلتك نائمة، فلم أُرد إيقاظك، كنت سأكتفي بتأمّل هناءة نومك، وأقبّلك في شعرك، وأتركك لأحلامك. لم أتقصّد أن لا أثير أدنى ضجّة، لكنّ انخطافك إليه كان أقوى من أيّ صوت، من أيّة همسة. أتصدّقين أنّي مكثت أكثر من عشر دقائق خلفك، أراقب حديثكما الحميم، وأتلوّى حرقة خيانة، وألم طعن، من دون أن تشعري بوجودي؟ لم أكن أتصوّر بلوغ الأمور بينكما هذا الحدّ! ولشدّة تعقّلي وضبطي لنفسي، تركتك معه، وعدت إلى الغرفة الأخرى، أجرّ ما تبقّى منّي بعد أن فقدتُكِ. جلستُ على تلّ خيبتي، أفكّر في حقيقة أنّه خطفك، أنّه ملكَكِ، كلّكِ، أنّه سرقكِ روحًا وعقلًا وقلبًا، وأنّني منذ أشهر أعيش مع هيكل امرأة. أنّك لم تعودي لي يا ثمر، أنّك صرت ثمرته هو، عشقه هو، امرأته هو. منذ تلك اللّيلة وأنا أعوّد نفسي على فراقك، على "سَفَرِكِ" النّهائيّ من

حياتي. كنت أعيش كلّ لحظة على أنّها الأخيرة لي معك. لقد خسرتُك، وخسرتُني، وخسرتُنا.

- لمَ لم تواجهني بالأمر؟ كيف استطعْتَ أن تسكتَ كلّ هذا الوقت؟

- لأنّني رضخت للأمر الواقع، وفضّلت أن أقضي أيّامي الأخيرة معك بحضارة أمام الأولاد. لمَ صخب المواجهة، وصدمة الشّجار، وجلبة الصّوت العالي؟ أنتِ صرتِ له وكفى. أنتِ لم تعودي لي وكفى. نحنُ انتهينا وكفى. ما فائدة المواجهة والعتاب؟

أخذته غصّة غائرة في عمق رجولته المكلومة إذ أدرك أنّها أدمنَتْه حتّى بات يراه في عينيها، في لفتة وجهها، في حزن شرودها. وأردف بِيَأس الخاسر:

- لا تستغربي من هدوئي هذا، فقد فجّرت غضبي، وحزني، وصراخي خارجًا. أتذكرين تأخّري مرارًا عن موعد رجوعي من العمل، حين كنت تتّصلين فأطمئنك أنّني أحضر بعض الأغراض، أو أنّني في زيارة لصديق، أو أنّني في بيروت؟ لقد كنت أهيم على وجهي في الطّرقات، أصرخ تارة، أرفع صوت المذياع إلى أقصاه طورًا، ألطم على وجهي ورأسي علّني أستفيق من هذا الكابوس!

فعلًا، حاول وائل كثيرًا أن يخز وجوده الذّاوي في انسحابها منه، ليفيق من ذاك الكابوس، ولكنّ الحقيقة كانت دائمًا بالمرصاد لتردّ اللّطمات بصفعات مزلزلة. ساعات طويلة، بليدة، أليمة، حاول فيها أن يفهم ذاك السرّ الإلكتروني الذي جنّنها، أن يفقه ذاك السّحر الذي رماه عشيقها عليها من خلف البحار، من قلب الحروف، من عمق الشّاشة! أهكذا ينتصر العالم الافتراضي على الواقعيّ؟ أهكذا يتفوّق الجموح العاطفيّ الإلكتروني على العشرة الإنسانيّة الطّويلة؟ لطالما سمع أنّ الخيال أرقى، وأسمى، وأقوى، وأبعد، وأوسع من الحقيقة، ولكنّ الأشهر الأخيرة له معها، أكّدت له خطأ هذه النّظريّة، وضيق أفق صاحبها. فما حصل لهما منذ عشقتْ صديقها الأدبيّ، وما وصلا إليه بسبب عشقها هذا، فاق كلّ تخيّلاته! لم يتخيّل في حياته، في أسوأ لحظاته، أن ينتهيا هكذا: غريبين في بيت واحد، أن تذهب بقلبها لغيره، أن تفقد شغفها إليه، أن يفترقا اثنين بعد أن كانا واحدًا، أن يسلِّمها يائسًا، داميًا بيده لآخر، بعد أن استلمها من يد أبيها الباكي منذ عشرين عامًا، أن يُغلق بيتهما على عمره الماضي معها، بعد أن فتحاه معًا على العمر والمستقبل ذات زواج، ذات عهد، ذات عمر. وتابع بصوت تخنقه حرقة المأساة:

– كنت أعوّد نفسي على غيابك، فأعود متأخّرًا للعشاء والنّوم،

ولا أكلّمك إلاّ نادرًا، بحجّة تعبي ومرضي، وأنعزل مع خيبتي وحزني، وأتركك إليه، بملء إرادتي، إذ إنّني اعتدت أن أحبّ بكرامة، وألّا أشحذ عاطفة أحد، وإذا قصُرت محاولاتي السّابقة كلّها، عن ردّك إليّ، فهذا يعني أنّه لم يتبقّ لي منكِ شيء، وأنّه ملَكَكِ كلّك، وأنّ بينكِ وبينه قارّة كاملة لكنّ روحيكما متلاحمتان، وبيني وبينك متر واحد، وروح كلّ منّا في قارّة.

ثمّ عاد من غور انكساره ماسحًا خيبته الدّامعة قائلًا بلهجة تهديد حازمة:

– اذهبي إليه يا ثمر، اذهبي إليه، ولكن، اعرفي، يوم تخطين خارج هذه العتبة، أنّك لن تعودي إلى داخلها أبدًا، وأنّك لن تري الولدين إلاّ بإذن من المحكمة بقرار قضائيّ لأيّام وأوقات محدّدة، كأيّة أمّ مطلّقة. حضّري الولدين لغيابك الطّويل، حتّى لا يُصابا بصدمة نفسيّة حادّة ترافقهما مدى حياتهما، تحجّجي لهما بأيّ عذر منطقيّ قد يبعدك عنهما لفترة طويلة، وأنا سأهتمّ بهما، وربّما أوظّف مدبّرة منزل تدير الأمور كلّها في غيابي كما في حضوري. كان الله بعون هذين البريئين في غيابك المرير، فقد قاسيتُه وأعرفُه تمامًا.

كانت حاجتها إلى التّقيّؤ تشتدّ كلمة بعد أخرى، حقيقة

بعد أخرى، ترتفع حرارتها حينًا فتشعر بأنّ قلبها يشرف على الانفجار، ثمّ تنخفض حينًا آخر فتحسّ بدُوار رهيب يزيد من غثيانها حتّى يكاد يُغمى عليها. كان وقع الواقع ثقيلاً جدًّا على قلبها، قاسيًا جدًّا جدًّا على عقلها، تخطّى كلّ قدرة استيعاب عندها. تناخرت رصاصات: "مطلّقة"، "اذهبي إليه"، "المحكمة"، "قرار"، "غريبين"، "أعتاد على غيابك"، "لم تعودي لي"، "خسرتنا"، "لن تعودي إلى داخلها"، "لن تري الولدين"، بقاياها المتناثرة بين وائل، والولدين، ونور، وظَلّ نزف الحقيقة المرّة يدمي ساعاتها الأخيرة الباقية في بيتها.

أخذ وائل الولدين في نزهة طويلة، وتركها تلملم ذواتها المتشظّية في كلّ أنحاء حياتها المنكوبة؛ ولكن من أين تبدأ وكلّ ما حولها منهار أو مشروع انهيار، لم يبقَ فيه ثابت على آخر؟ كلّ ما حولها يميد ولا يستقرّ على حال لتُحسِن التّفكير والتّخطيط وإعادة البرمجة. لقد اخترق " فيروس" نور حاسوب كيانها و"فَرْمَتَهُ" و"هَكَّرَهُ" وعطّله شرّ تعطيل. كان عليها أن تبدأ من النّهاية، من الطّلاق، ولكنّ كلا عقليها الباطن والظّاهر يرفضان تقبّل هذه الحقيقة الباترة لكلّ شرايين عمرها. كيف؟ كيف تتقبّل نهايتها وقد أيقنت متأخّرة جدًّا أنّها ما زالت في أواسط البداية؟ فقد غيّرت مسار حياتها للتوّ، وتحوّلت من

المهنة الآسرة القاتلة إلى الكتابة الحرّة الباعثة، وصارت قادرة على أن تهتمّ بالبيت أكثر، وتمضي مع أولادها وقتًا أطول؛ حتّى وائل، بدأت تكتشف فيه كلّ يوم رجلًا بشهامة وتعقّل وحكمة ألف رجل! أهكذا ينتهي كلّ شيء قبل أن يبدأ؟ أهكذا تتساقط كواكب مجرّتها على رأسها نيازك ناريّة حارقة؟ أهكذا تُحرم ولديها قبل أن تتمتّع بمراهقتهما وشبابهما؟ أهكذا تذوي كلّ ذرّة استقرار وثبات وأمان، وتبقى وحيدة، شريدة، "مطلّقة" في مهبّ الأزرق؟ أيستحقّ عشقها الأزرق أن تموع ثوابتها، وتعيش على فوهة بركان دائم الاستفاقة مدى الباقي من حياتها؟ أيستحقّ نورها أن تُظلم حياتها الحاضرة لتستنير به في أيّامها الآتية؟ وهو؟ وعائلته؟ وحياته؟ أمستعدّ هو إلى هزّ ثوابته لأجلها؟ لم يعد بإمكانها أن تفكّر وحدها، أن تتكهّن الإجابات عن مئات الأسئلة التي لا يملك إلّا نور إجاباتها الحاسمة. استلّت هاتفها، ألغت الحظر عن رقمه:

- نور؟! أنت هنا؟!

انتظار ثوان.

- معك يا ثمرتي، معك حتّى آخر العمر، معك حتّى النّفس الأخير.

- لم أتمنَّ في حياتي أن يكون كلامك جدّيًّا، وأن تقصده حرفيًّا بقدر ما أتمنّاه الآن، في هذه اللّحظات بالذّات. قل إنّك قصدت كلّ حرف كتبتَه يا نور، قل إنّك لستَ تخدعني بنَيِّرِ الكلام لتصطادني فراشة تحوم حول النّور! قل إنّك مستعدّ لتقلب روتين الطّاولة، وتكسّر ثوابت المرايا من أجلنا، لنكون معًا مدى العمر الباقي! قلْ! أقسِمْ يا نور! أقسِمْ!

- ثمرتي، حياتي، ما بكِ؟ ماذا يجري لكِ؟

- ما سأقوله لا تسعه حروف صمّاء، وعيون بكماء، ما سأقوله يجب أن تشترك فيه كلّ حواسّنا، أن نعقله معًا واقعًا حقيقيًّا ناصع البياض لا ازرقاق فيه. انفرد بنفسك، وابتعد عن الجميع إن كانوا حولك، عليّ أن أتّصل بك صوتًا وصورة.

- صوت وصورة؟! يبدو أنّ الأمر خطير فعلاً، فأنتِ لم تمنحيني هذا الشّرف خلال أشهر علاقتنا إلاّ نادرًا جدًّا جدًّا يا ثمر! أمهليني خمس دقائق لأصير وحدي، وأتّصل بك.

خمس دقائق بالضّبط، واستنارت شاشتها باتّصال صوت وصورة. مرّرت إصبعها المرتجف فوق إشارة المكالمة الخضراء، وإذا به أمامها بكلّ غرابته وتفاصيله، فهي لم تره إلّا مرّات معدودة، حتّى لكأنّها تراه كلّ وهلة للمرّة الأولى، وشهقت باكية منهارة.

- ثمر، اِهدي يا قلبي، اهدي يا حياتي! خضّتيني عليكي أوي أوي، اهدي أومّال يا ثمر! الله إنت بترعبيني عليك! اهدي اهدي وكلّميني يا حبيبتي، قوليلي حصل إيه واحدة واحدة. أنا معاك أهو والله معاك ومش هسيبك. قولي إنت بس مالك يا ثمر، فيه إيه، حصل إيه؟

تحاول جاهدة أن تمسك شلاّلات دموعها، أن تلتقط أشلاء روعها المتطاير، أن تنظّم أنفاسها المتسارعة الهاربة منها، أن تسيطر على عنف نبضاتها الطّارقة أبواب قلبها حتّى الذّبحة.

- ثمر يا عمري، إنت كويّسة؟ فيك حاجة؟ طب حدّ من الأولاد جراله حاجة؟ وائل جراله حاجة؟ اهدي يا حبيبتي وقوليلي إيه اللي حصل؟ أنا معاك أهو لغاية ما تهدي خالص وتحكيلي.

طال بكاؤها، وارتجافها، وانهيارها دقائق لامتناهية، أحسّ نور خلالها أنّه سيموت ليحضنها، ليلفّ ذراعيه الدّافئين حول صقيع خوفها، فيغلّف تيهها الواهي، ويرأب انكسارها القاسي، ويلهث شهقاتها الخائفة. قتله ضعفها، ذبحته دموعها، حتّى شعر بقلبه يهرب إلى الشّاشة يتلقّفها كلّها، بعينيها الدّامعتين من ألم، بيديها المرتجفتين من وهن، بأنفها السّائل من بكاء، بشفتيها المزمومتين من شدّ، بصدرها الضّامر من ضعف: "يا

لقساوة المسافات! يا لجبروت البُعد! يا لقباحة الوهم الأزرق! أتكون روحك خلف الشّاشة تذوي بكاء، وتذوب ألمًا، وتعجز عن لمسها، عن احتضانها، عن أن تكفكف حزن دموعها؟! تبًّا للشّاشة الحمقاء! تبًّا للخيال! تبًّا للوهم! تبًّا وألف تبًّا للأزرق!!!".

ووسط تسارع اللّعنات، كانت نظراته التّائقة إليها كإلهة مقدّسة لا تُمسّ، كَرَبَّةٍ سامية لا تُبلغ، كحلم مستحيل لا يتحقّق، تهدّئها شيئًا فشيئًا، إذ رأت فيه، السّند، والعضد، والحبّ، والعشق، وأحسّت للمرّة الأولى، معه هو، ببذرة أمان تنمو رويدًا رويدًا في تربة نكبتها. استجمعت فتات روعها وقالت:

– نور، اسمعني وركّز معي منيح، اللّي جايي بحياتنا مش متل اللّي راح، لأن وائل عارف بعلاقتنا من أسبوع وساكت، شافني عم بحكي معك، وقري محادثتنا، وواجهني بالحقيقة، وطبعًا، زعل، وغضب، بس ضلّ رايق قدّام الولاد لأنو هوّي حضاري، وحكيم، وناضج، ورزين، بسّ ما رح يسامح خيانة العقل والقلب، ولا رح يسمح إنّي عيش معو بذات البيت بجسمي، وكياني كلّو مع شخص تاني. قَلّي: " روحي لعندو وما ترجعي، لأن إذا رجعتي ما رح تعيشي معي بالبيت، رح كون طلّقتك، وبتشوفي الولاد بقرار من المحكمة".

وعادت لنوبة بكائها إذ نطقت بكلمتي "طلّقتك" و"المحكمة"، بكلّ ما تحملانه من واقع قاس، ونهاية مأساويّة لقصّة حبّها القديمة، وحياتها الطّويلة مع وائل. كانت الحسرة الخفيّة تعتصر فؤادها المكلوم بجرح الحقيقة الوحيدة: وائل سيطلّقها، لن تكون امرأته بعد اليوم، لن تكون روحه بعد اليوم، لن تكون حبيبته الأخيرة والوحيدة بعد اليوم... لن ولن ولن... أجزاء من أحجية الحقيقة الكبرى، بدأت تتجمّع في ذهنها لتؤلّف الصّورة الكبرى لحياتها المقبلة تحت عنوان: "ثمر الحاج".

- نور، هلّق صار وقت يصير الكلام فعل، وتصير الوعود حقايق. أنا رح صير حرّة ووحيدة، وإذا إنت بدّك، فيي صير إلك وحدك. اوعدني إنّك تحبّني وتصونّي وتحترمني وأنا بروح لعندك وبعيش معك.

تناثرت حروفها الأخيرة عليه نجومًا متلألئة تظلّل سماء حياته، أغمض عينيه، فبهره بريق أنوارها، تضيء وتطفئ كشجرة العيد، مدّ يده ليلتقط نجمةً فاستحالت "ثمر"، كلّها بين يديه، متّشحة بالضّياء، تمدّ يديها لتعانق حرمانه، وتطبع على شفتيه قبلة من نور. أوووف أهذا هو طعم النّور؟ أهكذا تتحقّق الأحلام؟ ثمر حرّة ووحيدة وله وحده؟! ثمر، حلمه الجائع الأكبر، سيُشبع ويُتخم حقيقة وعشقًا؟ ثمر، أمنيته الأعظم والأقدس والألذّ

ستستحيل ثمرة يانعة بين أصابعه؟ أوووووف أهذه هي السّعادة التي تشغل البشريّة منذ الأزل؟

- ثمرتي، أنت لي منذ الأزل، خلقك الله لتكوني في حضني، وتنيري حياتي، وتكوني سبب سعادتي، وتعوّضي صبر سنين حرماني الطّويلة خيرًا، وبهجة، وحبًّا، وفرحًا، وشِعرًا، وشغفًا، وجمالًا جمالًا جمالًا! ألله! ألله! ألله! ألله! على جمال الأيّام الجايّة معاكي يا حبيبتي! ألله على السّعادة اللي أنا فيها يا أنا! لا يمكنك أن تتخيّلي إحساسي! أنا أشعر أنّني في حلم! حلم إيه؟! ما خلاص! ما عادش فيه أحلام! من اليوم وحتّى الرّمق الأخير سنحيا أجمل حقيقة! حقيقة عشقنا! الحقيقة الوحيدة التي فاقت الخيال بكثير! أنا بحبّك أوي أوي أوي يا ثمر! بحبّك ده إيه؟! أنا بعبدك يا أنا، يا مزّتي، يا جميلة، يا أطعم ما في الكون! خلاص بقا يا حبيبتي من النّهار ده ما فيش دموع! امسحي دموعك يا أنا، أنا جنبك، أنا نورك الآتي! اهدي يا روحي اهدي!

مرّ كلامه على شغاف قلبها المكلوم بلسمًا أثيريًّا مرمر سحره على أنين خوفها، طبطب على رعبها من مجهول آتٍ، لا نور فيه، إلّا قبس "نورها" هناك، في القارّة الأخرى، في الجهة المقابلة من الكون، قبس خافت يلوح لها من بعيد، متلألئًا، يقترب مع

نبض حروفه رويدًا رويدًا، تكبر مساحة ضوئه، تتّسع أكثر فأكثر، لتأكل بؤرة ظلمة وجودها، ويلفح اشتداد لهيبها سُكر عينيها عن قساوة الحياة بعد أمان وائل وحنان الولدين.

- إن شا الله يا نور إن شا الله. أنا مرعوبة يا نور، مرعوبة ومنهارة وحاسّة الدّني خلصت! أنا بكم شهر خسرت كلّ شي: زواجي وعيلتي وولادي واستقراري! خسرت حياتي كلّها يا نور! حاسّة إنّي رح موت، رح موت يا نور!

- بعد الشّر عليكِ يا نور عينيّ! أومّال أنا رحت فين؟ أتندمين لأنّك عرفتني يا ثمر؟ أتندمين لأنّك كسرت قيد الرّوتين والفراغ والضّجر؟ أتندمين لأنّك عدت تكتبين، وتبدعين، وتخلقين، كما في الماضي؟ أتندمين لأنّك عدتِ معي مراهقة تضحك وتغوي وتنطلق، من دون خجل ولا خوف؟ أتندمين لأنّك رأيت النّور بعد ما أظلمت أيّامك؟ صحيح أنّك خسرت استقرار الماضي، لكنّك ربحت مغامرة المستقبل. خسرت أمانًا لكنّك ربحت تجربة. خسرت بيتًا وربحت بلدًا بأسره! خسرت زوجًا باردًا لا يراك، لكنّك ربحت عشيقًا يغلي من العشق، يموت على كلامك، يموت في تضاريسك، يموت في كلّ تفاصيلك! عشيق كلّ أمله في الدّنيا أن يراك حقيقة أمامه، ليتأمّل فيك حتّى آخر يوم

من عمره. يلّا يا حبيبتي، امسحي دموعك الغالية، وجهّزي نفسك وتعالي، تعالي إليّ يا أنا، أنا في انتظارك. يلّا يا حبيبتي اقفلي دي الوقت، وروّقي كدا واهدي، وكلّ شيء هيبقى كويّس ان شاء الله.

– طيّب يا نور، سأقفل الآن وأبدأ بتهيئة نفسي، وغدًا أخبر الولدين أنّي سأسافر في عمل مهمٍّ جدًّا، أهمّ فرصة عمل في حياتي، ولا يمكنني أن أرفضها، وأنّي سأضطرّ إلى تركهما لأسابيع معدودة، وأعود إليهما بعد أن أستلم العمل في الخارج، وأعتاد عليه، ثمّ أعود لأعمل من هنا، من بُعد، وأواظب على السّفر من هنا إلى هناك وبالعكس كلّ فترة. لا حجّة أخرى عندي أعطيها لأتفادى أن أصدمهما. وسأتّفق مع وائل على أن يستأجر بيتًا يعيش فيه فترة تواجدي هنا، على أن أتحجّج بعمله في مكان بعيد واضطراره إلى المبيت هناك فترة. سيستغربان الوضع وسينزعجان بالتّأكيد بسبب هذه الانقلابات في حياتهما، ولكنّهما سيعتادان عليها طالما أنّ أحدنا موجود معهما دائمًا. لا أريد لهما أن يعرفا أنّ أباهما وأنا انفصلنا، فلنبقَ على هذه الحال، قريبين وبعيدين أمامهما وأمام النّاس، يعيش كلّ منّا حياته في السّر، وعندما يكبران، ويصيران قادرين على استيعاب الموضوع، نتدبّر

أمورنا. ما بعرف يا نور ما بعرف، أنا شبه منهارة وأتماسك بالقوّة ولا أعرف إلى متى سأصمد .

– معلش يا حبيبتي كلّها كم يوم وتبقي فحضني ونسّيك كلّ التّعب والهمّ والحزن ونعيش أحلى أيّام عمرنا.

– ان شاء الله يا نوري. يلّا باي.

– ان شاء الله يا ثمرتي. باي يا أنا.

وانطفأت الشّاشتان على وعد بشغف مشتعل خلف القارّة الأخرى، وراء البحار السّبعة، شغف أطفأ عمرًا، وأضاء حياة، عشق أحرق دنيا وخلق كونًا. وفي اليوم التّالي نفّذت ثمر خطّتها، وأخبرت الولدين عن سفرها، وعملها، كذلك وافق وائل على الافتراق الحضاري السّري من أجل حماية الصّحة النّفسيّة للولدين. واتّفق معها على أن يعيش كلّ حياته كما يريد بأقلّ ظهور أو علن ممكن، وبسريّة فائقة، ريثما تمرّ السّنوات الدّقيقة على الولدين. مضى باقي الأسبوع فيّاض المشاعر، لا تتلاقى فيه عيون وائل وثمر، إلّا وتتبلّلان بدموع ساخنة، عن نبضات حارقة خافقة، تبوح بكلّ ما عجز الصّوت عنه، فاستقوى الصّمت، وساد البيت سكوت رهيب، استقطعته جملة وائل لحظات الوداع في المطار، حين انفرد بها بعيدًا عن الولدين،

والأهل والأقارب الوافدين لوداعها: "علّميني، قبل ما تتركيني، كيف شيلك من قلبي، أو شيلي قلبي من صدري، وعلّميني كيف عيش من دونه، من دونك". وقبّلها على جبينها، لآخر مرّة، فارتجفت ورقة خريفيّة بين يديه، وهمّت تقول: "بل افعل شيئًا لتُفيقني من هذا الكابوس! توقّف عن شهامتك هذه، اشتمني، اجرحني، أرسلني إليه هاربة من ظلمك، لاجئة إلى حنانه، ربّما أغفر لنفسي شيئًا من ذنبي العظيم في خيانتي لوفائك". ولكنّ سيل دموعها التي اغرورقت بها عيناها الواهنتان من سهر ليال، وذنب أيّام، حجبت، في ضبابيّة خرساء، كلّ كلام، فاستحال عناقًا طويلاً، أليمًا، أخيرًا، التصق فيه القلبان عند انسلاخ الوداع. ثمّ استدارت، وسارت بخطى حائرة وعينين ثابتتين نحو بوّابة الطائرة، خشيت أن تنظر خلفها حتّى لا تستحيل ثمرة من ملح، وابتلعها ضباب المسافرين.

(٣٤)

- أنا في الطّائرة يا نور، قريبًا نقلع وأغلق هاتفي، وينقطع كلّ اتّصال بيننا.
- وأنا على أجنحة الفرح يا ثمرتي، قريبًا أنطلق نحو المطار، أنتظر وصولك، ويشتعل كلّ وصال بيننا. أعشقك يا أنا. كوني بخير.
- إن شاء الله.

ما استغربت، ولا هو استغرب برود كلامها، وسكون نيرانها. فكلاهما كان غارقًا في تيهه: هو يقدّر ركود مشاعرها، ويتفهّم هول صدمتها، ويحترم انسحابها المؤقّت، وكلّه أمل بأن يشعلها بنظرة، ويحرقها بلمسة.

ساعتان ونصف في الجوّ، قضّت ذكرياتها خلالهما كلّ محاولة راحة، فما لبثت تئنّ تحت نير موقف بعد آخر، وتتألّم من نَهْشِ نابِ ذكرى إثر أخرى. تذكّرت طفولتها اللّاهية في الحيّ، ومراهقتها المكبوتة في البيت، وشبابها الضّائع خلف فولاذ سجن التّعليم، ووثير استقرارها الماضي، وحرير هدأة بالها اللّذين، بدأت تؤمن بفقدانهما إلى الأبد، ووائل والولدين

والمجهول الآتي. فكّرت في كلّ شيء ما عدا نور. نور الذي انسحب نحو المطار، وسحب بلاطه بقدميه، عشرات المرّات، ذهابًا وإيابًا، وفي باله، وقلبه، وكلّه فكرة واحدة: "ثمرته". وبعد خيبات كثيرة بحجم جوع أحلامه، وشدّة رعونة آماله، أطلّت ثمرته من بعيد، تجرّ في تعب وجهها، وهنها وحيرتها، وفي بلل نظراتها خيبتها ومرارتها، وفي تجهّم ملامحها خوفها وضياعها. أهذه هي ثمرته اليانعة، الحلوة، السّكّريّة، اللّاهية، الضّاحكة، التي سرقته وجنّنته؟ أهذه هي حبيبته الأثيريّة المقدّسة، إلهته ومعبودته الشّامخة، السّامية، القاتلة؟ أهذه هي معشوقته التي ليس كمثلها امرأة؟!! إنّها لتبدو مكسورة الهيبة، منهوكة الهيأة، مجدوعة الجانحين، أنثى ضعيفة حتّى الجرح، مكلومة حتّى العظم، مستنفذة حتّى الموت؛ امرأة وحسب، ككلّ النّساء الضّعيفات اللّواتي عرفهنّ! ومع ذلك فقد علّل نفسه بخصوبة طينتها، وانطلاق روحها، وكمال شخصيّتها، وإثارة جمالها، فهي العشيقة الشّاعرة السّاحرة، قطعة الحلوى الماسيّة المتلألئة في منجم حياته، لا بدّ له من أن يتلقّف حزن انكسارها، ويرأب عمق صدعه، لتعود ثمرته اليانعة الشّهديّة اللّذيذة.

لمحتْهُ على بعد أمتار قليلة، من خلف ضباب دموعها المتشبّثة بحبال جفنيها، خفّاق المشية، متوتّر الحركة، يفرك يديه حينًا،

ويشبكهما فوق بطنه المنتفخ خفيفًا جدًّا، ثمّ يسحبهما بسرعة كأنّه يخجل ظهور ذاك الواشي بسنّه، ويردّهما خلف رأسه ويشدّ بهما عنقه في تمرين سريع لذراعيه المفتولين من مواظبة واضحة على الرّياضة، يغضّن جبهته حينًا، ويفردها حينًا آخر وهو يطبق فمه عن زفرة أو شهقة نفاد صبر. وتلتقي نظراتهما عند خطوط تماس الدّهشة، والشّوق، والخيبة، والحزن، والفرح، واللّهفة، فيحثّ كلّ منهما خطاه نحو أحضان الآخر، ويلتصقان في عناق باك طويل، أمطرت فيه على كتفه غيوم دموعها. وبعد دقائق دامعة، نظر في عينيها الحمراوين وقال:

- خلاص يا حبيبتي، اهدي بقا الله، مش نبطّل بُكا بقا؟ ثمر يا أنا، إنتِ فحضني يا حبيبتي، تعالي نروّح ونتكلّم في هدوء.

وأردف غامزًا، مازحًا:

- ولاّ انت ناوية تباتي في السّويت اللي حجزتهولك في المطار؟

تضاحكا عن ذكرى أولى فانتازياتها التي أرسلتها إليه وهما بعد في مرحلة التّخطيط للّقاء الموعود؛ ولكن شتّان ما بين ثمر اللاّهية المنطلقة في الفانتازيا، وما بين ثمر المنكوبة المنكسرة في الحقيقة.

ترافقا إلى الفندق الذي حجزت فيه، أونلاين، ثلاث ليال، على أن تجدّد الحجز أو تطيله إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. ولكنّ إدارة الفندق منعته من الصّعود إلى غرفتها، فاضطرّا إلى المكوث في المضافة. أجلسها جنبه، وطوّقها بأحد ذراعيه، فاستحالت فرخ يمام تحت جناحه، وجذب يديها الاثنتين بين يديه، قائلاً:

- ها، هديتي يا حبيبتي. إنت كويّسة؟

أجابت بصوت متقطّع:

- ماشي الحال.

- أنا لم أرد أن أتركك ثانية واحدة، ولكنّ نظام الفنادق عندنا لا يسمح لمصريّ بأن يدخل غرفة أجنبيّة ولَوْ بِرِضاها؛ يجب أن يُبرِزا عقد زواج، أو أيّة ورقة رسميّة تثبت شرعيّة العلاقة بينهما.

دخلت كلماته إبَرًا في لحم كرامتها، وخزتها حتّى الضّمير، وابتعدت عنه نافرة، ورمقته بنظرة لائمة، غاضبة.

- مش قصدي يا حبيبتي، ما تفهمنيش غلط! خلاص خلاص ما تزعّليش نفسك إنت ولا تتأثّري بحاجة، أنا سأحلّ هذا الموضوع، لا تحملي همًّا، واصعدي إلى غرفتك، استحمّي

وارتاحي لساعتين، وسآتي لآخذك "أفسّحك"، ونأكل معًا، ونتمشّى على النّيل ونحقّق كلّ ما حلمنا به.

– وزوجتك؟ ماذا بشأنها؟ كيف ستغيب عنها كلّ هذا الوقت؟ كلانا يعرف صعوبة طبعها! والفندق؟ كيف ستحلّ موضوعه؟ أستتركني لوحدي، لمخاوفي وخيبتي عندما نعود؟

– قلتلك متشيليش همّ أيّ حاجة، سأتصرّف وستجدينني معك، بين يديك، وتحت قدميك ساعة تشائين.

– يعني رح تبقى معي كلّ الوقت، أنا بحاجتك جنبي كلّ الوقت، أنا مرعوبة، وحزينة، ومكسورة، ومش واردة إبقى لحالي ولا دقيقة.

– وهو كذلك يا ثمرتي، أنا معاك كلّ دقيقة. فكّيها بقا يا ستّي! فين ضحكتك الشّقيّة اللي بتعمل فيّ العمايل؟

تبتسم بوهن وتجيب:

– عمايل إيه؟ ما خلاص.

يشدّ على يديها ويضمّهما إلى شفتيه، ويقبّلهما بلهفة:

– بموت في المصري من شفايفك العسل دول! بموت فيك يا أحلى حاجة في دنيتي!

اكتفت بضمّه، وأرسلت من عمق انكسارها تنهّدة حارقة، ثمّ افترقا على أمل اللّقاء بعد ساعتين اثنتين. مضت ساعتان، وثلاث، ولم يأت، فازدادت خوفًا، وحزنًا، وجنونًا. اتّصلت به مرارًا، فلم يُجب. راسلته على الواتس وعلى الماسنجر، فكان خارج تغطية الإنترنيت. اجتاحتها دفقات جارفة من المخاوف هزّت بواقيها الباقية.

فجأة قُرع جرس باب غرفتها بحدّة وقوّة. جفلت، قفزت من مكانها مرعوبة، وهرعت نحو الباب تسأل بصوت مخنوق:

- مين؟

- أنا نور، افتحي يا ثمر.

استردّت أنفاسها الذّاوية، وفتحت الباب مدهوشة، فانسلّ إلى الغرفة كالنّسيم غالقًا الباب خلفه. استدار، ووقف للحظات يتأمّل بهاء وجهها بعد حمّام دافئ، وانتعاش شعرها المبلول الممشّط إلى الخلف، وعري سماء كتفيها عن نجوم عشرات الشّامات المبعثرة، تتساقط عند دلتا ارتفاع نهديها النّاتئين من ثوب رياضيّ، ضيّق، قصير، يرسم باحتراف عالٍ، وإثارة ناريّة تضاريسها التي يعشقها، ويحلم منذ شهور، بل منذ عقود، بل منذ الأزل بغزو دهاليزها.

سألته مدهوشة:

- كيف صعدت إلى هنا؟ ولمَ تأخّرت عليّ إلى هذا الحدّ؟ متّ من الهمّ والخوف يا نور!

فعاد من إثارة شروده، وأجاب:

- ها؟ آه آه، قلتلك إنّي هتصرّف.

- وشو عملت؟ قلّي.

- مش مهمّ، المهمّ إنّ احنا سوا يا ثمرتي، لوحدنا.

وهمّ يعتصرها بكمّاشة حرمانه الطّويل، يمرّر يديه على خصرها نزولا إلى مؤخّرتها، يكوّرها، يشدّها، ويلتصق بعاج جيدها في قبلة صاخبة بأنين شهوة عنيفة؛ فانكمشت، وارتبكت، وابتعدت دافعة إيّاه عنها بقوّة، وهي تتنفّس بصعوبة بالغة، وتسقط على كرسيّ مجاور باكية. يقترب منها رويدًا رويدًا، ويركع تحت قدميها، يقبّلهما ويقول:

- معلش اعذريني يا ثمرتي. بس الحق عليك برضه.

ترفع عينيها عن نظرة استغراب، فيردف:

- إنت طعمة أوي أوي أوي يا ثمرتي، وأنا محروم أوي أوي أوي. أنت واقفة أمامي بكلّ سحرك، بفستان يحرّك الحجر،

وأنا نهر جارف لا يُلجم! يبقى الحقّ عليك ولاّ لأ؟

تتجاهل غزله البلدي، وتبعده عنها، وتقوم نحو النّافذة شاردة بعينيها وفكرها عن كلّ ما ومن حولها.

– ثمر، مالك يا حبيبتي. لمَ تبتعدين عنّي؟ أنا نور يا ثمرتي، نور الذي كتبتِ فيه أجمل قصائدك، أنا عشقك، ونارك، ونورك يا ثمر! ولا إيه؟ إنت مش عايزاني يا ثمر؟ مش حسّاني يا أنا؟ طب ادّيني فرصة أقرّب منّك، ألمسك، أحسّسك بحبّي.

– ان شاء الله يا نور. ولكن امنحني قليلًا من الوقت لأعتاد عليك. دعني أفيق من صدمتي. أنا الآن بحاجة إلى حنانك، وتفهّمك، وصبرك، بحاجة إلى أن أُشفى من وجعي لأعشقك بكُلّي، بحاجة إلى حبّك لأعطيك من حبّي. حبّني يا نور، حبّني كتير، حبّني بالأبيض متل ما حبّيتني بالأزرق.

لم تنم ليلتها، أسهدها تفكيرها ببراءة ولديها، وشهامة زوجها. اعتصرها ألم كبير دفع بها إلى حافّة النّدم على مغامرة خسّرتها حياتها. وقبل أن تسقط في قاع اليأس، التقطتها صورة نور، بكلّ شغفه بها، وعشقه لها، بكلّ حنانه وعطفه عليها، بكلّ احتوائه لضعفها وانكسارها. وصارت تتجمّع فتافيت عمرها رويدًا رويدًا حتّى اكتمل كيانها الجديد: "لقد أفنيت عمري لينمو

زغبهم، وأطعمتهم القسم الأكبر من كيكة حياتي: سهرًا، وعملًا، وتعبًا، وهمًّا، وخوفًا. نعم، لقد أدّيت لعُلا الزّواج والأمومة قسطي، وسأعيش مراهقتي المتأخّرة التي لطالما سخر منها وائل، وعيّرني بها، بطولها وبعرضها. لا، لن أموت ناقصة حياة! سأعيش! سأعيش حلمي الجميل، حلمي الكبير حتّى النّفس الأخير!".

انقضى شهر، عاشا خلاله على صفحة الحياة، ما خطّته أيديهما من أقاصيص عشق قصيرة على الصّفحة الزّرقاء، وما رسمته فانتازياهما الخلّاقة على الصّفحة الحمراء من جموح وجنس من كلّ شكل، وكلّ طعم، وكلّ لون. ولكنّ الواقع الأبيض ظلّ قاصرًا عن الشّغف الأزرق، فما لبثت أن خمدت ثورة الشّبق، وخبا ضياء الجنون، وهدأ وهج النّار.

شهر كامل، وهي تغوص على مرجان روحها، تبحث عن ذاك الجنوح، عن ذاك الجنون، عن تلك اللّهفة، فما كانت تقع إلاّ على طحالب من الجنس السّريريّ الخائب، وتندب مأساتها في اختيارها.

شهر كامل، وهو يبحث في عينيها، في شفتيها، في كلامها، عن روح إلهته الأسطوريّة، الهائمة في سماء اللّاعقل، واللّاألم، واللّاخوف، واللّاحزن، واللّاملل، ويندب خيبته في فقدانها.

شهر كامل من الحبّ الأبيض، كان كافيًا، ليُفيق نور على هول الفاجعة: لقد ملك روحها من خلف ازرقاق البحار، تائقًا إلى بلّور جسدها، ولمّا لمس الأخير، فقد الأولى. هي هي رحلة البحث الدّائم عن كمال العشق، في عالم ناقص، وبشر ناقصين، وحياة ناقصة. هي هي مأساة الحالم في خيبة الحقيقة. هو هو العالم الأزرق بحقيقته الافتراضيّة التي دوّختهما، وأرهقتهما، ودجّنتهما، فإذا به، كما كانت عادته قبل اللّقاء الأبيض، يعتكف في غرفته الخاصّة، يعود إلى الوهم الأزرق خائب الحقيقة، يستلّ هاتفه، ويكتب...

هناك، على الضّفّة الأخرى من الحروف، في العالم الأزرق، أضاءت شاشتها:

– هذا هو غضب الآلهة يا ثمرتي، لقد حاولنا أن نقلب وجهة أحد المغناطيسين ليتلاحما، فأمسك بنا جهاز أمنها، وأنزل بنا أقصى العقوبات، كأنّي به يقول: "هذا جزاء كلّ من تسوّل له نفسه التّحايل على الآلهة، ستفقد روحها أوّل ما تملك جسدها، ولن تستعيدها إلّا إذا زهدت به". أحبّك يا ثمرتي، ولكنّ وقع سوط حرماني منك عليّ، وأنتِ معي، أقسى، وأكثر ألمًا، من أن أتحمّله. يا لقساوة الحقيقة البيضاء يا ثمرتي! أن تكوني معي، ولست لي، وأن تكوني لي ولست

معي! أتعرفين؟ معك ذقت طعم ثمار الجنّة، وخطوت مخمل أرضها، ورأيت منتهى سحرها، وسمعت أصداء سمفونيّاتها، ولمست رقّة فراشاتها، وتحسّست انسياب مائها... آآآه من وجعي في تفاصيلك يا معبودتي! آآآه من حزني في غربة روحِك يا أنا!

أنا الإنسانُ والفنّانُ والشّاعِرْ

أنا الرّاضي والشّيطانُ والدّاعِرْ

أنا الحزنُ الذي يمتدُّ كالدّنيا

بلا آخِرْ

أنا المطعونُ في قلبي

أنا المجروحُ في حبّي

أنا المتمرّدُ الثّائرْ

أنا المتعذّبُ المتألّمُ السّاحِرْ

أنا تسكنُ الأحزانُ قلمي

أنا يمتصُّني ألمي

أنا الظّمآنُ للثّمَرِ

وفي روحِ ثمرتي

حياةُ الحرِّ والفاجِرِ

- بل هي لعنة الأزرق يا نوري، رصد اصطناعيّ أنزله علينا العالم الافتراضيّ، لأنّنا خرقنا قواعد اللّعبة، لأنّنا جنحنا أبعد من الميتافيرس، لأنّنا تحدّينا أبعاد الأصفار والآحاد، وأصررنا على أن نجعل الافتراض حقيقة، والبعد قربًا، فغدت أعدادنا المختزنة عائلة، وعملًا، وحياةً كاملة، أصفارًا خاوية إلّا من آحاد الخيبة والعجز؛ لأنّنا لم نمتثل للنّظام السّائد، لأنّنا تخطّينا الحدود الزّرقاء، واجتزنا الخطوط الحمراء؛ إنّه الجحيم البنفسجيّ يا نوري! جحيم يسرق منّا الرّوح، تطوف في أرجائه، جميلة، فرحة، ولكن حذار من الانطلاق! حذار من الواقع المادّي! فالمادّة طموح الافتراض، والجسم حلم الميتا، لذلك يبذل صانعو الذّكاء الاصطناعي كلّ شيء في سبيل "التّجسيد الطّبيعيّ"، على أن يبقى ضمن عالمهم، فإذا خرج منه، ألغاه، لأنّ الأصل يلغي النّسخة، والطبيعيّ يلغي الاصطناعي، والمادّة تلغي الافتراض، والحقيقة اللّامتناهية تلغي حدود الأبعاد. هذا هو جحيمنا يا نوري، هذا هو قدرنا يا أنت، مهما سعيتَ لتكون أنا، ستبقى أنتَ أنتَ، وسأبقى أنا أنا، لن ننصهر إلّا روحًا، من خلف الشّاشة، على خطوط

البُعد. هناك، كنّا على بعد قارّة جسدًا، وعلى قرب رمشة عينٍ روحًا، كانت حروفنا الزّرقاء أنفاسًا نتجرّعها فنفيض حياة، كانت كلماتنا الإلكترونيّة أرواحًا تتقمّصنا فنصير أثوابًا جديدة ترفل بها أحلامنا، كانت قصائدنا شموسًا نستظلّ بها في ليالي الشّوق فتستحيل خبزًا وخمرًا، حتّى نشوتنا الافتراضيّة كان لها طعم آخر، لذّة أخرى، هيهات منها اللّذات الخائبة التي ذقناها على سرير الواقع. أعتقد أنّنا حاولنا أن نجمع الأزرق بالأبيض لنتوهّج شغفًا، فإذا باللّون يبهت، كذلك العشق، والجنس، والحبّ، والوله. أعتقد أنّنا حاولنا أن نقتنص أقصى الكمال افتراضًا ومادّة، أعتقد أنّنا طمعنا جدًّا يا نور، حتّى خسرنا كلّ شيء: الزّوج، والبيت، والأولاد، والاستقرار، والمستقبل؛ أما كان أفضل لنا أن نكتفي بالحلم؟ أن نخلق لنا عالمنا الخاصّ، ندخله كلّما أرهقنا الواقع، فنطير في سمائه فراشات من نور؟ أما كان أفضل لنا أن نقتنع بغرابة علاقتنا؟ لقد امتلكنا الدّنيا وما عليها في حروف، ولكنّ طمعنا أفقدنا كلّ طعم، وكلّ لون!

(٣٥)

ززززززززززززززززززززززززززززززززززززززز

أفاقت جافلةً، لاهثة، متعرّقة، على هزّات مستقطعة من هاتفها، قائلةً في نفسها:

- يا ساتر على هالكابوس! ما أبشع ما يمكن أن يحبكه اللّاوعي المنهك من أفكار! الحمد لله على نعمة الحقيقة!

التفتت لتلتقط الجوّال فعماها عن شاشته المتوتّرة المضيئة طيف وائل المنتصب أمامها وفي يده ظرف بنيّ كبير جنب حقيبة عمله.

- باسم الصّليب! نقّزتني!
- خير يا ثمر، ماذا بخصوص السّفر؟
- أعتقد أنّ رحلة كهذه يمكن لها أن تخفّف من توتّري الدّائم، وتشحنني بطاقة كبيرة، فأتعرّف إلى أشخاص جدد، وأكتشف بلدًا جديدًا. أنا بأمسّ الحاجة إلى هذا التّغيير، إلى هذه التّجربة.
- فعلًا، ستكون تجربة مميّزة! تجربة العمر!

شعرَتْ بأنّ سيناريو الكابوس على وشك أن يتكرّر، ولكنّها أبعدت ذلك الهاجس عن مخيّلتها التّعبة. فهي شديدة الحرص خلال اتّصالها بنور، وتمحو كلّ الدّردشات أوّل بأوّل، وتحظر رقمه دائمًا بعد إنهاء محادثاتها معه. لا، لا، مستحيل أن يعرف وائل بشيء، ربّما ما زالت تساوره الشّكوك، ولكنّ أيًّا منها لن يتأكّد له. مستحيل! مستحيل!

أعادها صوته من شرودها الحذر:

- شو يا ثمر؟ أمصرّة أنت على هذه المغامرة؟
- نعم، يا وائل، مصرّة، وأحتاجها، وأريدها.
- طيّب، خذي هذا الظّرف معك. سيفيدك جدًّا في رحلتك هذه.
- وماذا فيه؟
- فيه أمور تخصّك أنت و"نورك". عشيقك المصري الذي ينتظرك هناك.

مادت بها كلّ الثّوابت وكاد يُغمى عليها، ولكنّها قاومت وصرخت ملء صوتها المخنوق كأنّها ما زالت تحيا الكابوس ولم تستفق منه:

- ماذا؟ ماذا تقول؟ لا أسمح لك بأن تتّهمني بهكذا اتّهام! لن أسمح لك بأن تمسّ شرفي يا وائل! قد أكون أخطأت مرّة، ولكنّي تُبْتُ وتعلّمت، وأن تشكّ فيّ بهذه القباحة، وأن تنعتني بالمومس بشكل غير مباشر فهذا لن أرضى به. لا! لا يا وائل، لقد تخطّيت كلّ الحدود! كيف تجرؤ على...

قاطعها راميًا الظّرف في وجهها، بانفجار كلاميّ نثرها أشلاء امرأة:

- وقحة وخبيثة وكاذبة! يا عيب الشّوم عليك! أتعرفين؟ كنت عازمًا على منحك فرصة أخيرة بحقّ العشرة الطّويلة، وتضحياتك معي، وعمرنا معًا، ربّما تستفيقين، ربّما تتعلّمين، ولكنّكِ أثبتِّ بوقاحتك هذه أنّك أرخص ممّا كنت أعتقد، أقبح بكثير ممّا كنت أخمّن! أمامك أربع وعشرون ساعة لتوضّبي أغراضك وتتركي هذا البيت إلى غير رجعة.

فغرت فاهها، وجحظت عيناها عن هول تصرّفه، وقسوة كلامه، لكنّها استجمعت شتاتها وفضّت الظّرف بيدين مرتجفتين من غضب، ورعب: كانت رزمة من الأوراق تَظْهر عليها "داتا" تفاصيل محادثاتها مع نور بالتّواريخ المحدّدة، والأوقات الدّقيقة، منذ أكثر من ثلاثة أشهر! خرست عن دهشةٍ تآكلت ما تبقّى من رميم أعصابها تحت دويّ كلام زوجها:

– ثمر، نقص من السّاعات الأربع والعشرين دقيقة واحدة! أسرعي!

وأفلَ عنها على هزّاتٍ متردّدةٍ من هاتفها:

– مساء الخير أستاذة ثمر، أنا عُمر كامل، أحد متابعي صفحتك ومناقشاتك النّقديّة في النّادي الثّقافي، وأطمعُ في رأيكِ بكتاباتي.

ابتسمَتْ عن دموعِ منتهى النّدم، امرأة في مهبّ الأزرق...

تمّت